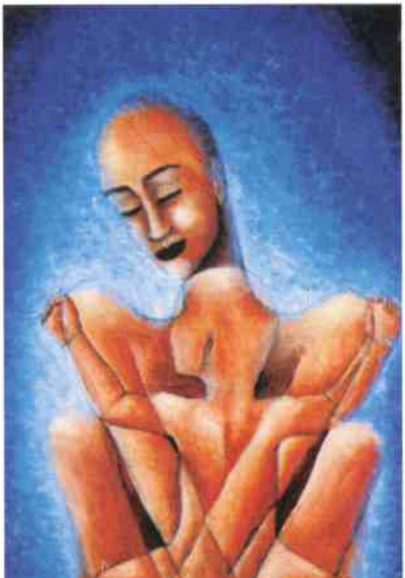
عراة

على ضفة النهر

صالح ابو اصبع



قصص قصيرة

الطبعة الثانية - ١٩٩٨

عيسى يوسف المويشي

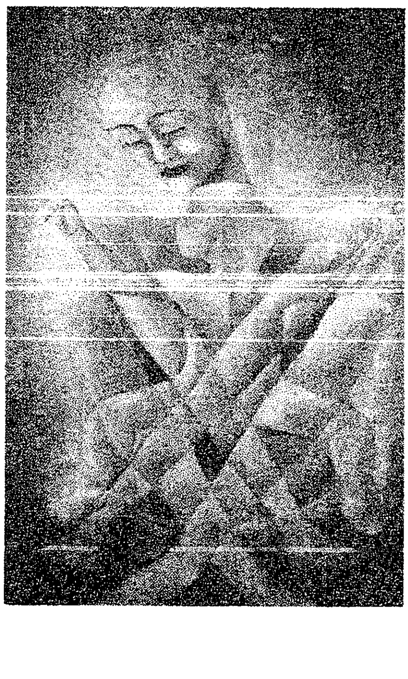
عراة على ضفة النهر

قصص قصيرة

عراة

على ضفة النهر

صالح ابو اصبع



قصص قصيرة

الطبعة الثانية - ١٩٩٨

فهرس

الصمت موت

لا تناموا...

حسن، لقد استيقظنا، ووضعنا كل شـــيء فـــي مكانـــه، ومشينا طرق هذا المعسكر قصيرة، لكنـــها محصـــورة، ونحـــن الجنود نعيش في رفاهية نأكل البسكويت، وننام بدون ضجـــة، لا نصنع شيئا سوى الطوابير.

- استيقظوا..

- وركلني الشاويش بقدمه- نومي ثقيل، تعرف هذا أيها الشاويش، وركلني ثانية.

- لماذا استيقظ.

- الطابور ثم الإفطار اغسلوا وجوهكم، احلقوا ذقونكم، لمعوا أحذيتكم، سيروا اليوم وأعينكم إلى السماء.

وانطلقت في أعماقي قهقهات مكتومة، اليوم فحسب أسير

لم؟

يقولون مولانا قادم من؟ مولانا قادم.

- لا بل مولاك أنت.

- اخرس لا تتكلم.

ثم خرست.

أيها الشاويش وماذا نصنع لمولانا.

فأجابني الشاويش بغمزة هي الأوامر...

الأوامر في معسكرنا تسير بنظـــام اعتيـادي علمونـا النظام.. علمونا الكلام لا شيء سواهما سيزورنا اليوم - يزورنا النبي-. مرة واحدة إذن اخلعوا أرديتكم، أقنعتكم أيـــها الجبنـاء مولانا قادم.

- موتوا ماذا صنعتم.. أتخشون العار.. لا ليس عـارا.. لا تخشوا فالعار هناك في المقـــهى حيـث سـقطت جدرانـه، وضربات الساعة تقول الموت للأطفال والأبطال وللعاهرات في سوق المحال.

وضاعت بسماتي وصمونا بالعار وأنا أتمنى لو نستطيع أن نجعل من السماء ساحات للأطفال يتقاذفون بها كرة القماش.. اخلعوا أقنعتكم من أجل الأطفال.

الأطفال زينة الدنيا هكذا كانت تقول أمي رحمها الله. قبل أن تموت أوصتني بشفتين مزمومتين "يا بني ضع سـيفك فـي الطين ولا تهتم".

يا أمي سيفي ما زال مشرعا ينتظر مسيرة الطين لأضعه بها.. وقلبي يأكل الفتات يسرق النغمات.

- عيناك يا حبيبي نجمان... أنت يـا حبيبـي بسـمة.. ورده... أنت المحال.. أنت الرجل في ساح النضال.

- النضال؟. أنتم بؤساء.. وابتسمت.

هرب كثيرون من التجنيد الإجباري، أما أنا فجئت وأنا سعيد بزي العسكري، إلا أن الدموع كانت تنغمس مع الآهات، وأنا أحرك رأسي بزهو على إيقاع مشي الطابور العسكري.

- لمعتم أحذيتكم.. أحزمتكم.. طابور. طابور.. شمال يمين.. شمال يمين.

حبيبتي أنت السحر والقمر، من يزرع النوار قرب الجدار.؟؟ من يحرس الأطفال؟؟ من يغذي قلبي بالحب؟؟

- لا تخشي شيئا.. فالنوار ينبت رغم كل شيء إلا في الطين.. ينبت في الجبال حتى على تراب المقابر.. جدتي قبرها عششت فيه فروخ الحمام، ونبتت عليه الزهور، رحمك الله يا جدتي: لفة القماش وبها المفاتيح الصدئة، ما زالت بيدك.

- يا بني سأفتح الباب حتى تعود يوما.

عمرك يا جدتي تسعون، وقلبك أخضر، وعيناك لؤلؤتان، لأنك متفائلة، حسن في قبرك الذهبي وضعنا سلسلة المفاتيح الصدئة.

وتكلمت عن العالم الآخر حينما يموت الإنسان، يحضر ملكان، ملك الخير وملك الشر يفتحان الصحيفة يزنان ثم يحاسبان.. السرقة حرام.. القتل حرام.. في القرية جاع الأطفال،

سرقوا الفريكة من البيدر، والناطور يوميته رغيف من خبز الطابون وبيضة، والبيضة في بطن الدجاجة، والدجاجة تريد العلف، والعلف في الطاحونه، والطاحونة يا جدتي ليست ملكنا، الطاحونه مسكرة فيها (ميه معكرة)(1).

حواديتك يا جدتي لذيذة.

وصرخ الشاويش إلى اليمين در.. شمال يمين.. شمال يمين. وفي أول طابور سرته مثل هذا.. كانت عين الجاره على نوارة الشباب.

– انظروا انه كالسبع يالروعته والبندقية على كتفه ليحرسه الله.

– لكن السبع يا جارتنا جائع، وبندقيته خشبة جوفاء، معها خمس رصاصات لو أطلقت إحداها.. آه لو فعلها أي إنسان.. لو خلع أحدنا قناعه، ليفرغ رصاصة في رأس حقيرة، عله يجد جرعة ماء إلهي في زنزانة يطفيء بها ظمأ آلاف الآلاف.

– كتفا سلاح.. جنبا سلاح.. سلام سلاح.

وبعد هذا أيها الشاويش؟!! أكتافنا (تسلخت) من خشبكم... وأطفال بلادي تضربونهم بالهراوات الخشبية، انهم لم يسرقوا أرضا.. اليوم الخامس والعشرون من الشهر، التموين

بعد أيام، والدقيق نفد، ولكن أختي لا تجد من يقرضها عجنـــة... الأطفال لا يجدون ما يأكلونه. قالوا لنا إن في المدينة الكبرى من يربون الكلاب ويلبسونها فاخر الثياب لكنهم لا يستلمون الدقيـــق آخر الشهر.

وضحكت من أعماقي، الكـــلاب تلبـــس الثيـــاب... ثـــم تحدرت من عيني دمعة، لم أزر المدينة الكبرى، قـــط، قبـــل أن أكون جنديا... تكلموا لي عن نسائها أنا الذي كنت أرقب الفتيات من بعد.

والمدينة الكبرى لا تعلم الحب فقط، بل علمتنا أن نكتب رسائل الحب أيضا، وأن نقرأ القصص ونثرثر في المقـــاهي وأن نقترض السجائر.

في المقهى... كانت جلستنا دائما، وبالأمس انتهت قصتنا قالوها ثم كرروها ألف مرة، هؤلاء هم الجنـــود الذيـــن بـــاعوا أنفسهم للساقطات.

وسقط جدار المقهى.. الموت لهن في سوق الرجال.

الحب ضاع.. ونحن الجنود لا نطيـــق أن نحـــرم مـــن النساء... أضاعونا هنا... نعيش لنثرثر ولتأكل عيوننـــا ظـــهور الفتيات، في عصر كل يوم نرقب المارات من الطريق المواجـــه للمعسكر، والأطفال في بعض الأحيان يأخذون المتبقي من وراء

غذائنا.

لا بأس ليموتوا جوعا هكذا قالت الكلاب المبجلة في المدينة الكبرى..

- دع سيفك في الطين ولا تهتم.

- يا حبيبي الليالي تمر ببطء. لا يطاق، ما عدت أحتمل الفراق، أين إخلاصك.؟ أين وعودك، أين شرفك العسكري.؟

- يا آنستي قائدي الأعلى داس شرفي العسكري... قايض بنا بنساء شقراوات بقطع ذهبية في بنوك سويسرا.. ودرس جدتي الوحيد إياك وبنات حواء، وأوصتني أمي أن ابتعد عن الحب، وقالت لي أن لا معنى له..

وماذا تريدين.؟

الكلاب تتمرغ في النعمة... أعدموا الحب في قلوبنا، لماذا لا تبحثين عن آخر لا بندقية معه، لن أموت وبيدي رسالة حب- فجدتي ماتت وبيدها المفاتيح، ألم تشاهدي الأطفال الذين يسرقون البيادر.... أعذرك لأنك لم تشاهدي الكلاب المبجلة في المدينة الكبرى.

- ألن تتزوج؟.

- إنك طيبة، جارتنا في البلدة تظن ذلك.. وابنة عمي يقولون:- أنهم قرءوا الفاتحة من أجلنا أما أنت فغنى لك قلبي...

لكني أشعر بأنني سأنام وبندقيتي معي.. مكانك قــف.. الــهتاف موحد.. أعيدوا مرة أخرى.. اصرخوا بصوت أعلى.. لا ليـــس هكذا..

- تعلموننا الصراخ.. شكرا لكم.

يا أمي قلت "متى أفرح بـــك وأراك عريســا"... لكــن العرس يا أماه قد يصطبغ أحيانا باللون القاني. لو رأيت الزفـــة الكبرى من آلاف الحناجر موحدة كموج البحر، عظيمة كحبــك لي، ثم قال القائد أطلقوا النار على أي حنجرة تهتف بالسقوط.

وهمس أحد الجنود الموت للنعام الموت لمـــن يضغــط الزناد...

وسرت بيننا نغمة... ماذا لو نعصي الأوامر.. لن نطلق أي رصاصة. وأجاب البعض... سنحاكم الأوامر مشددة..

- طز في الأوامر وفي اللي أمرها.

- أي والله طز فيهم.

ليسقط السلطان.. يسقط السلطان..

يا بني الصمت موت.

حاكمونا على المخالفة العسكرية، لكن يا مولانا الأطفال يسرقون الفريكة من البيدر وبيادرهم ضاعت من جبنكم.

مولانا يحبكم "يا شعبي العزيز... أبناء أسرتي" مولانـــا

انعم عليكم بالدراهم.

- اشكروا مولانا ليحفظ الله مولانا.

أحضروا أجمل فتيات المدينة.. سرقوا خمس فتيات، والكلاب المتخمة من حوله تشم ليس الجنود فقط يغتصبون النساء، فلم أسقطوا جدار المقهى.؟ ولم يسقطوا جدران القصور ؟ وفي القصور يسهرون وهم يحاصرون النساء... أما الجنود فيسهرون الليالي في خيامهم، القليلون يحرسون المعكسر ،والباقون منهم من يلهو بورق اللعب، ومنهم من يحملق في صور نجوم السينما العارية، والبعض الآخر يقرأ لآرسين لوبين أو جيمس بوند، ويفكّرون في بنادقهم تزيينها وتنظيفها، وفي رصاصها الذي لا ينطلق.

- يا حبيبي، عيناك نجمان، أنت أملي ومناي.

المرأة والبندقية والرجل لا يمكن أن يجتمعوا على سرير واحد، وبندقيتي لم تتكلم بعد وحين يأتي اليوم الذي تنعدم فيه قيمتها سأعطيك مفتاح قلبي وبيت المستقبل.

- مفتاح البيت يا بني سيظل معي، أنا الذي سأفتح الباب حين نعود.

- لا تتعلل بالبندقية، سمعت ما قالوه وعنكم أيها الجنود، أكنت معهم...

بدأت أفهم بعتم أنفسكم للساقطات، أوهن اشترينكم بأبخس الأثمان، قل لي أنك ضعت وفي استطاعتك أن تحضن امرأة بلا مسئوليه أو شرف.

لا تقولي هذا.. لم نخطيء سوى مرة واحدة... لم نمنع جدتي من العودة ولم نسرق العفيفات... انك لم تشاهدي حفل ميلاد الأمير حيث كانت الموسيقى تصدح، وتصم آذاننا، وجاء مولانا ليحضر حفلة الميلاد، ووزع علينا (الشيكولاته والبسكويت)... وأكلت الكلاب اللحم، وفي قريتنا كنا لا نذوق طعم اللحم إلا في موسم الزيت، كانت تقول أمي هذه نعمة:. لتحمدوا الله على النعمة.. حمدناها يا أمنا كل لحظة، ولم نصمت..

فالجندي حسن تكلم ولكنهم أخذوه إلى السجن الكبير، ليلاقيه خبير التعذيب الألماني، وتكلم وصرخ ليسقط من باع التراب وبنى من ثمنها الصور، ليسقط من أحرق الأبطال في السجون ونهش لحوم الطاهرات ورمى طعام الأطفال للكلاب.

سجنوه وعذبوه فالصمت موت وكان لا بد أن يقولها فليس للموت فوت يا أماه.

– قولوا يحيا مولانا... اهتفوا... وحدوا هتافكم... إلى الأمام سر..

- حبيبي أني ارقب لحظة عودتك.. أيامي عذاب فكل طارق أظنه أنت.

واقبل الشاويش: أيها الجنود اصلحوا من قيافتكم سننتظر مولانا في المطار.. ومات الجندي حسن.. هز الجنود رؤوسهم بأسى وقالوا يرحمه الله البقية في حياتكم. أية بقية هذه؟.. وأطفالنا يشبون في غير تربتهم، وعمرنا قصير، وبندقيتي لم تتكلم بعد أخشى عليها الصدأ بل أخشى على حنجرتي ذلك.

اخلعوا... انزعوا أقنعتكم أيها الجنود... الجندي حسن خلع قناعه إذن حين يأتي مولانا سأنزع قناعي.. واجعل للرصاصات الخمس حق الكلام.

- أيها الجنود... وحدوا هتافكم.. إلى الأمام سر... شمال يمين. شمال يمين.. وسرنا في انتظار مولانا.

آذار - مارس 1966

إهداء

إلى المناضل عمر عبد الرحيم حماد وروح الشهيد عبد الفتاح سلمى

بطلي هذه القصة

تحياتي للقياده

نسرع.. ندور يمينا.. ثم يسارا.. نتوقف.. أقدام خلفنا. نتوقف يا عبد الفتاح.. اهمس له صاحب المعطف الرمادي.. ما زال يتابع خطوتا.. وفي ذهني صور عديدة.. وصوت دوي انفجار.. ها قد سقطت اللافتة .. ها قد سقط الوجود الذي غرس في قلوبنا.. جناح إسرائيل في معرض أزمير الدولي. ومشاعر غريبة تجتاحني.. الأوامر محددة.. نسف الجناح بلا أبرياء أو ضحايا. الطلبة الأتراك يهتفون.. فلسطين عربية.. ينددون بحرق المسجد الأقصى.؟

- ماذا تصنع؟ قلت (لعبد الفتاح).

درنا دورتين داخل الجناح.. المكان الذي سنضع فيه العبوات استكشفناه هل نضع العبوات.. ولكن الأصوات تتعالى لتمزق آذاننا وتشل قدرتنا على الحركة. هي تقترب من الجناح.. ليس أمامنا إلا واحد من حلّين.. أن نضع العبوات الموقوفة كما

هي مضبوطة.. وماذا سيعني؟ سوى قتل هؤلاء الذين جاءوا يتظاهرون من أجلنا، أو أن نغامر بخروجنا والمتفجرات في جيوبنا.

وجذبت عبد الفتاح سريعا.. وبعيدا سرنا..

كان دبيب خطوات.. ندور ويدور الدبيب ليس بعيدا عنا، ثم نسمع جهاز التوقيت يدق.. دقات رتيبة.. أحسست وكأنها قرعات طبول في واد عريض.. تصطك أصوات في جنبات الوادي فيعود صداها إلينا.. الثواني تمر عن بعد أمتار كان يمكن أن تسمع دقات قلبينا.. الثواني غالية وثمينة حينما تكون مقياسا للموت أو الحياة.. خلال ثوان علينا أن نبطل مفعول جهاز التوقيت.

وصوت القائد الرخيم يقول.. لا بأس يا عمر أن يسمع العالم صوتنا ولكن يجب أن يكون صوتا نظيفا.. لا ضحايا ولا أبرياء.

زرنا الجناح مرات وحسبنا بدقة الثواني التي يقفل فيها الجناح أبوابه أمام الزوار. والثواني التي يدخل فيها عمال النظافة أو يخرجون.. وكان علينا أن نضع المتفجرات في مكان ملائم لنسف الجناح .. فلسطين عربية.. فلسطين عربية.. هذه المظاهرة ألم تجد مكانا تتظاهر فيه؟. لم لم تذهب إلى السفارة

الإسرائيلية أو الأمريكية أو مبنى الحكومة أو البرلمان..؟!!

وأي مكان إلا هذا المكان..!!

عبد الفتاح يقول لي ناولني ما في جيبك.. دقـات قلبـي تعلو كلّما مرت ثانية جديدة أرقب البحر.. وأتخيل نفسي أشـلاء ممزقة.. طعاما شهيا.. لحيتان البحر.

عبد الفتاح يمسك بجهاز التوقيت يحركه يحاول أن يعطل دورانه.. عبد الفتاح يحركه.. اشعر بسعادة ونشوة غريبة.. القائد (أبو مازن) بوجهه المهيب يعانقني يودعني.. يشد على يـدي.. أنتم تخاطبون ضمير العالم بصوت مرتفع إيـاكم أن تخـاطبوه بالضجيج.. لا ضحايا ولا أبرياء.. الأوامر يجب أن تنفذ هذا ما أعنيه.

كنا قد أرسلنا للقيادة معلومات كافية عن الجناح مع عديد من الصور له.. أبعاد الهدف السياسي من القيام بمثل هذه العملية واضحة كما صورتها لنا القيادة.. إذا ألقي القبض علينـا وذلـك احتمال من احتمالات عدّة.. واجبنـا أن نعـترف بأننـا أبنـاء فلسطين. أبناء هذا الجناح الـذي زوروا اسـمه وكتبـوا عليـه إسرائيل..!!

هو ذا البحر..!! بحر يافا الذي ولدت في حضنه بعيـدا بعيدا.. عبد الفتاح بجانبي يحرك عقربا مـن جـهاز التوقيـت،

انشغل عنه بمنظر طفل يلهو بكرة بالقرب من والديـــه. طفولـــة سعيدة.. أطفالنا لا يجدون ما يأكلون.. في الشتاء تزحف الميـــاه إلى خيامهم. يصطفون طوابير لينالوا وجبة غذاء مسروقه.

وتهب نسمة هواء باردة تعيد إلى حيوية زائدة.. وأحـــس بحاجتي لأن أصرخ، أن أركض، أن أطير.. المتظاهرون يهتفون فلسطين عربيه. أريد أن أجري في شوارع أزمير وأصيح عربي أنا.. عربي فلسطيني.. فلسطيني..

وأبو مازن حينما ودّعني همس في أذني: الإنسان هـــو مادة الثورة ومن أجله تقوم.. نحن باحتياجك كن حذرا.

أحسست بوجوم حينما تذكرت كلمـــات القـــائد وكأنـــها أعادتني إلى الحقيقة هنا بجوار عبد الفتاح على شاطئ البحر..

- عبد الفتاح أين وصلت..؟

لم يتكلم أشار بيده اسكت..

عدت مرة أخرى إلى خيالاتي.. تصورت نفسي هنـــاك في الأغوار، والقائد يشد على يدي مهنئا.. والفدائيون من حولي أروي لهم تفاصيل العمليـــة بحمـــاس فيصفقـــون.. وينشـــدون ويدبكون.

ها إني أتحدث إليكم من مكان ما.. لست أدري ما هو.؟ على أية حال هو واحد من اثنين: مستشفى أو سجن، لكن شرطيا

يحمل سلاحا يجلس بجواري.. حاولت أن أتحرك.. وجدت نفسي مربوطا بسرير.

سألت الشرطي بكلمات واهنة: أهذا سجن.؟ فلم يجبني.. سألت أهذا مستشفى؟ فلم يرد. حاولت أن أتحرك فلم أستطع.. أشرت للشرطي.. لم يتحرك.. ضغط الشرطي على جرس.. فقدمت ممرضة، بسمة عريضة على شفتيها طلبت كوبا من الماء..

البحر.. تذكرت البحر.. وعبد الفتاح بجانبي.. لكن أين عبد الفتاح؟ وأين أنا..؟

عيون القائد من جوف السقف تخرج تخاطبني.. لا بأس أن نسمع صوتنا العالم ولكن يجب أن يكون نظيفا بلا ضحايا أو أبرياء.

صرخت عبد الفتاح.. عبد الفتاح.. حاولت أن أنهض.. لم استطع. بدأت أعي قليلا من الحقيقة التي أنا جزء منها بضمادتي ووجودي المأسور، نقلوني إلى مكان ما. ولكني عرفت فيما بعد انه مكان للتحقيق.. مباحث جنائيه ومخابرات حققوا معي.. سألت أين عبد الفتاح.؟

نظر المحقق إلي بنظرات صلبه.. ثم قال هو في مكان ما.. بجرأة قلت: أنت تكذب.!! أين هو ؟؟! طلبت منهم جرائد

الصباح.. سمحوا لي بها بعد استشارة الطبيب. مات عبد الفتاح..!! وشهقت ولكن كيف؟! وزميله عمر جريح.. من.؟ أنا؟ وأخذت أتحسس جسدي كي اكتشف الحقيقة.. هي ذي الحقيقة عبد الفتاح مات.. كانت الأوامر صريحة.. لا أبرياء.. ثم صوت نظيف يخاطب العالم.

جاءني المحامي الذي عينوه ليدافع عني.. حدثني بمودة بالغة.. شعرت بأنني أستعيد شيئا من وجودي معه. سألني هل من شيء احتاجه منه..؟

بلغ تحياتي للقيادة وقل لهم كنا صوتا نظيفا بلا أبرياء.. أو ضحايا.. قل لهم إني سعيد جدا..

ثم جاء شاويش .. ليعلمني أن المدعي العام يطلبني.

شباط – فبراير 1971/2/11

الأم

تركض ويركض قلبها معها.. طلقات للنار سمعتها وهي في السوق الأقدام تغذ خطوها، وعيون الذعر تنطلق في كل اتجاه يمينا وشمالا، وإلى الخلف ثم ترتد إلى الأمام.. ركض الجميع... مثلهم ركضت توقفت.. الناس يركضون... توقفت... ثم جرجرت رجليها، وقلب المؤمن دليله.

الناس يسألون... ماذا جرى..؟! ويسألون ولا ينتظرون الإجابة. البعض يجيب ثم يعود ليسأل.. ماذا هنا؟؟.. طفل صرخ بأعلى صوته: قتيل على باب الجامع.. شيخ قال: يهودي. جندي يهودي، ثم تابع بهمهمات تصدر من أعماقه.. الفدائيون.. فرك يديه بفرح وقال: سلمت أيديكم التي تضغط على الزناد.؟

سيارات جيش الدفاع الإسرائيلي.. زامور الخطر يتصدرها.. تهرع نحو مكان الحادث. وجدوا ورقة عند الجثة منقوش عليها كلمات قليلة.. أوقعها الفدائيون العرب.. دبّ الذعر.. أخذت المتاجر تقفل أبوابها.. بينما ظل المقهى الرئيسي على حاله.. البعض فيه يلعب الورق.. آخرون يلعبون النرد.. والبعض يكركر بنرجيلته.. تظاهروا باللامبالاة..

يركضون.. الناس يركضون.. هنا وهناك في شوارع خان يونس وأزقتها.. ينعطفون في الأزقة ويركضون.. ركضت

مثلهم بادئ الأمر ثم انخلع قلبها.. تقدم نحوها الشيخ..

- يا حاجة أسرعي إنهم لن يرحموا شيخوختك..

نظرت إليه وصمتت.. وحتى لو رحموني فماذا ستكون رحمتنا.. ماذا تبقى لنا يستحق الرحمة.. قبل الحرب الأولى كنت صغيرة.. قتلوا أبي... ماذا تركوا لنا سوى بطاقة إعاشة.. وأين.. ابني حبيبي...

هل أبقوه لها؟ أنخلع قلبها وأمسكت عن الحركة.. ابني ماذا جرى له.؟ منذ دخولهم.. وهو يبتعد يوما بعد يوم عنها.. هي تأكل من بطاقة الإعاشة... وهو يغرق في الفلوس.. أصبح يعاقر الخمر.. يعاشر النساء.. كما فاحت رائحة حكايته.. لم تصدق.. رفضت نقوده.. وهو ابنها.. أبوها مناضل كبير استشهد.. اخوتها في الضفة الغربية لم ترهم منذ النكبة إلا بعد الاحتلال.. أبناء اخوتها استشهدوا..

- يا ولية تحركي.. قال لها الشيخ ذلك، ثم جذبها من كمها.. وجرجر خطواته الواهنة وهي معه.. ثم انطلقت رصاصات من رشاش.. كانت أفواج الجماهير تتدافع في كل اتجاه..

- وسألت لأول مرة ماذا جرى.؟!

- فدائي بطل (طخ) يهودي.. أجابها العجوز..

يهودي.. فرحت.. نزغرد. لا فلترقص.. وأحست براحة عميقة.

- هل رأيته.. هل رأيته.؟

- لا.. من سيكون إذا لم يكن يهوديا.؟

-..........................

- قد يكون خائنا.. والخائن يهودي أليس كذلك.؟

- خائن.؟!!

- ويستحق مئة رصاصة بين عينيه.

مدت يدها إلى الجبين بين العينين.. وتسمرت في مكانها.

- يا ولية تحركي ما بك.؟

- أريد أن أرى القتيل.

- هل جننت؟؟! واحد فطس في جهنم مالك وماله.؟

-..................

- امشي يا بنت الحلال..

ثم أمسك بيدها وأخذ يجرجرها..

دارت السيارات العسكرية المدججة بالجنود الإسرائيليين.. تطوف أنحاء خان يونس ومخيمها.. تعلن حظر التجول.. وأن من سيخالف الأوامر ستطلق عليه النار فورا.. أقيمت حواجز على مفترق الطرق.. فيها نقاط تفتيش دقيق..

للنساء والشيوخ والأطفال والرجال..

من عند نقطة تفتيش مر وهو يجذبها غير آبه بالجنود..

- قف!! صاحوا به..

ابتسم الشيخ وعاد إليهم والعجوز معه..

في أذنها همس.. فدائيون.. فدائيون نحن.. إبتسم.. يا ليت يا ليت شبابنا يعود ونصبح فدائيين..

جرت إجراءات التفتيش الدقيق.. اطلعوا على الهوية.. العجوز فتشوها.. أمروهما بالتحرك ومغادرة المنطقة بسرعة..

عاد الشيخ يقول لها وهو يهز رأسه بحسرة.. فدائيون.. نحن فدائيون يا ليت يا ليت.. يا مرحبا بالموت لو نقدر.. أتعرفين يا حاجة نفسي بماذا..؟ نفسي "أطخ" جندي من أولاد الكلب.. وبعد ذلك أموت!... أولاد الكلب يريدون أن يذلونا".

سارت معه.. لا تسمع ما يقول.. لكنها كانت تفكر بالعودة إلى الجامع لترى القتيل.. ألحت على ذهنها.. الفكرة... ثم طردتها من ذهنها.. حينها استشهد والدها واستقبلت أمها وحماتها نبأ الاستشهاد بالزغاريد عاد رفاقه يحملونه على أكتافهم... يلفونه بقطعة قماش ملونة.. تذكرت الألوان... سوداء... بيضاء.. خضراء.... حمراء.... وتذكرت جنازته كم هي مهيبة.. مات ويده على الزناد... يصد مع رفاقه هجوما شنه

الصهاينة على قريتهم التي طردوا منها.

أخذت الحركة تهدأ.. وسألها الشيخ.. أنا ذاهب إلى معسكر خان يونس ألا تسكنين هناك؟... سارت معه في أزقة المعسكر اللاجئية الضيقة... ثم تذكرت أنها اجتازت بيتها الذي وهبته لها وكالة الإغاثة.. سحبت المفتاح من صدرها... أحست كأنها استلت من صدرها سيفا تقتحم به عالما مجهولا... أمسكت المفتاح الذي طوله طول شبر بيدها... وقبضت عليه بطريقة مسدسية وأدارته في قفله.. ثم أمسكت عن فتح الباب.

ندهت على ابنها... بصبصت من عين القفل.. من هناك؟.. ثم ألصقت أذنها بالباب.. هي تسمع صوتا ما.. كان وجيب قلبها مرتفعا.. من هناك.؟!

ثم فتحت الباب بسرعة واندفعت داخل حجرتها.. دارت داخلها مرتين.. ثم وقفت ساهمة.. ماذا بها.؟ نظرت من نافذة حجرتها.. أحست بانسحاق الحركة. الناس في بيوتهم.. لكن أرجلا تركض بخفة ونشاط تتنقل من زاوية إلى أخري..

التفتيش عم المنطقة بأسرها... أوقفوا آلاف الشباب والشيوخ والأطفال والفتيات واختاروا مئات المشبوهين.. جريمة وقعت.. أبصار عيونهم سلبت... لا بل عيونهم فقئت فلم لا يحجزون أكبر عدد من الناس ليعرفوا الفاعل.

بين السكان طار النبأ.. أسعد قتل عند بـــاب الجـــامع.. رصاصات مزقت أحشاءه وأخرى شطرت جمجمته.. سلمت يدا الفاعل..

كانت تريد أن تعرف مــــا يـــدور حولـــها.. الجـــيران يعرفون.. لكن أحد لم يقل لها. حظر التجول شل قدرتهم علــــى التحرك أو النطق.

صوت سيارات تمخر في عباب بحر الصمت.. وينطلق زامور قوي يعلن وجود قوات الاحتلال هنا، كما أعلن عند باب الجامع... الصوت يقترب.. أحست العجوز أن الصوت قرعـــات تصم الآذان.. الصوت يؤذيها.. يتحداها..

ألقت نظرها عبر النافذة.. لـــــترى.. قذفـــت عيونـــها.. لترى.. كان طابور السيارات طويلا.. لم تميّزه أول مرة فاعتلت الطبلية وألقت ببصرها على امتداد الأفـــــق... رأت مجـــنزرات وسيارات جيب تعج بالمسلحين... عليها نجمة سداسية... سيارة جيب عليها علم أزرق في وسطه نجمة... فركت عينيها.. ورأت سيارات إسعاف تتوسط هذا الموكب.. ماذا يريدون منا؟.. هــــل تركوا لنا شيئا..؟ جاءوا ليفتكوا بنا..!

أخذ الموكب يقترب.. وكأنه يقصد نسف بيتـــها.. هكـــذا تخليت فأحست بالنشوة وبسعادة تجتاح جسدها الضئيل.. التفـــت

المدرعات والسيارات حول البيت وسمعت دقات حقيقة على باب بيتها فلم تجب... دقات أقوى..

- من هناك؟

- أنا المختار يا أم أسعد.. افتحي..

المختار.. جاء معهم.. أي ويل جاء به المختار..؟ ها قد ينسفون بيتي.. المختار جاء لينذر.

لكنها فزعت. إن بباب الجامع قتيلا..

- ماذا هناك؟ صاحت أم أسعد: إبني.. أسعد يا مختار.؟

- افتحي يا أم أسعد..

فتحت الباب.. كان المختار واقفا بجواره إسـرائيليان لا تعرف رتبتهما لكنهما بالتأكيد ضابطان،وجنديان يحملان علـى نقالة إسعاف جثة..

أبوها حينما جيء به.. كان ملفوفا بعلم.. زغردت أمـي حينما مات قالت عنه شهيد في سبيل الله والوطن..

قال المختار: ابنك يا أم أسعد ما..

قاطعته.. مات.. مات.. ويحمله اليهود على أكتافـهم.. ابتسمت، كان الجنود قد دخلوا بالجثة إلى ساحة البيت الصغيرة.. عزفت موسيقى جنائزية.. أدى الجنود التحية.. تحـدث ضـابط إسرائيلي وقال بعربية ذات لكنـة.. سـوف نعـرف الجنـاة..

سنحاسبهم.. لا تحزني على ابنك سنعوضك كل ما خسرتيه.

نظرت إليهم.. كانت عيناها تذهبان يمينا ويسارا.. لا تستغربي.. كانت الجثة بنعشها أمامها.

أخرجوه من هنا.. أخرجوه من هنا.. صرخت بجنون وهي تبكي.. كشف المختار عن وجه القتيل.. قال: أم أسعد إنه ابنك.؟

كان المنظر مخيفا.. هو ابنها حقا.. لكن تساءلت فيما إذا كان ابنها يأتي محمولا على أكتاف جنود الأعداء.

- ابني.. من قال يا مختار أن هذا ابني.. هذا ابنهم.. ليس ابني ليس ابني.. أخرجوه من هنا..

الضابط وقف مستغربا.. هو ابنك أيتها العجوز.. هو ذا أسعد.. وأمه أنت.. أنت أم أسعد.. وابنك أسعد جئناك به..

- لا .. ليس ابني.. ابني مات منذ ثلاث سنوات.. مات اسعد منذ أن عرفكم.. اخرجوا.. اخرجوا..

هز الضابط رأسه مستغربا.. المختار لم ينبس ببنت شفة.. دمعات نزلت من مآقيه.. "اخرجوا .. اخرجوا".

أمر الضابط بحمل الجثة.. فحملوها..

سار الموكب وزامور الخطر .. توت..توت..توت.. ثم انخرطت أم اسعد في بكاء مرير ونشيج متصل.. يعلو صوته صوت زامور الخطر..

نيسان – ابريل 1971

إهداء:

إلى روح الشهيد إبراهيم النجار الذي استشهد دفاعا عن أرضه المقدسة في جبال رام الله.

لغة الرشاش

ظننت للحظة أن بإمكاني أن أبتسم وأشعلت سيجارتي وتصاعد الدخان وهو يطير في عصبية هوجاء.

أمضيت بعض الوقت مشتت الفكر.. ماذا أصنع ورشاشي كل ما به يمكن تفريغه في لمح البصر والأوامر مشددة، لا تطلق النار.

أنا لا أطيق الصبر حينما يواجهني العدو.. فآثرت الانزواء في سفح الجبل حيث باستطاعتي أن أراقب تحركات العدو.. ومن بعد كنت أشاهد الغارات على المدينة والنيران تلتهمها حتى استحالت المنازل إلى خرائب وأطلال.

وابتدأت بقايا أشعة الشمس في الانصهار وغرق قرص الشمس الذي يحول دون إنجاز مهمتي في الأفق.. ومن على الجسر ترامت إلى مسامعي "صفرات" خفيفة أفزعتني لأول لحظة ثم أخذت موضع الاستعداد ورشاشي بيدي لأطلق النار فورا رغم الأوامر المشددة.

فتقدم جنديان يحملان رشاشين على الجسر كانت خطواتهما تلائم بإيقاعها الصغير وكلما تحركا إلى الأمام خطوات، ازدادت دقات قلبي وعلت أنفاسي.. وأردت أن

يعترف الجنديان بوجودي ولو لحظة..

- الأوامر مشددة.. مهمتك المراقبة.. لا تطلق النار..!

وهل أطيق المراقبة ثلاث ساعات وأعدائي يتبخترون على ارضي.. جبناء... هكذا قال لي والدي.. كان يتكلم وعيناه فيهما بريق الفخر..

- أين أنتم يا شباب اليوم من شباب زمان؟ كان الواحد منا يرعب مائة ولم يكن أبى راغبا في أن يصدق أن بإمكاننا نحن شباب اليوم أن نقوم بمثل ما قام به شباب زمان وحينما كانت الغارات كأمطار جهنمية تعصف بالأطفال فيموتون ولعبهم بأيديهم.. وعجائز يهلكون وهم يتمتمون بأدعية إلى الله.. وكثيرون من أهلي وأصدقائي ماتوا.. أدركت أن الموت حقيقة هو اسهل شيء يمكن حدوثه.. وأحسست في وقفتي هذه برغبة جامحة أن أعتلي قمة الجبل وأصيح بأعلى صوتي واغني ورشاشي بيدي فلا تتصور ماذا يمنحك مدفع رشاش، انه لا يعلن عن ذاتك فقط بل يعلن التحدي.

والجسر الذي أقوم بمراقبته من هنا.. هو الطريق الوحيد

إلى المدينة وإلى المنطقة كلها. كانت دوريـــة تحرســه، وبعــد لحظات تكاثر الجنود.. اثنان.. ثلاثة.. خمسة.. وازدادوا.. كـــم عددهم..؟

ينطقون بكلمات كنت أميز بعضها.. ألفاظ بذيئه وشتائم.. وتعالت ضحكاتهم ولم أتذوق لها أي معنى فبلعت ريقي.. كـــان حلقي جافا واجتاحتني سورة من الغضب ضحكاتـــهم الوقحـــة، ووجودهم الدنس يسحق كياني. يحيلني إلى ذبابـــة.. وددت لــو أضرب بالأوامر سفح الجسر.. الإنسان في لحظات يكون اسهل ما عليه أن يفنذ رغباته دون أن ينظر إلى أوامـــر أو نتيجـــة.. قائدي نفسه لو كان في موضعي لأفـــرغ رشاشـــه منـــذ زمـــن واستراح من مرأى عدوه يضحك ملء شدقيه الكريهين وقدمــــاه ثابتتان على أرضنا.. الثواني تمـــر ببـــطء تافـــه .. (عيونـــي) تراقبهم.. يتزايدون.. جلس أحد الجنود الصهاينة وتمدد آخـــر.. بينما ظل الباقون يثرثرون وتتعالى ضحكاتهم انا فتغطـــى علـــى وجيب قلبي.. وآنا يسود صمت محرق.. شيء واحد كان جديرا بمتزيق هذا الصمت.. مدفعي الرشاش لا غير..

تساءلت ماذا لو القوا القبض علي الآن.؟

- جرذ في مصيدة.. إنســـان لا جـــدوى منـــه أو مـــن رشاشه.؟

كانت فرصة رائعة لأحول قهقهاتهم إلى أنات.. أعدهم.. واحد ثلاثة أربعه إنهم لا يدرون ما يخبأ لهم مدفعي الرشـــاش.. وثارت في نفسي نشوة غامرة.. لو ضغطت على الزناد وقتلتهم.. عددهم على الأقل عشرة والظلام ستار يساعدني على الفرار بين الأشجار.. ثم سيقول الناس يا له من بطل.؟

وأحسست بخزي من نفسي لأني وضعت البطولة فـــوق الأوامر.

ورغم كل شيء كانت أوامر القيادة جدارا تتحطم عنـــده آمالي..

طلقة واحدة في الهواء أيتها القيـــادة كافيـــة لأن تبلـــل سراويلهم.. حاولت أن التقط أنفاسي التي كانت أسيرة المشـــاعر الفياضة.. ماذا سأقول للرفاق حين أعود إليهم؟ دورية كل بضع دقائق عددها يزيد عن عشرة جنود.. يثرثرون.. ثم يقهقهون.. ثم يصمتون.. تمر كل بضع دقائق بعـــض الســيارات العســكرية يوقفونها.. ثم تمر.. أهذا ما أقوله لهم.؟

يا لتفاهة الموقف من بعيد كانت كشافات لعربات ثـــلاث قادمة تنير الطريق، وترتمي الأنوار على الجـــانبين. انكمشـــت خلف صخرة أراقب من خلفها، توقفت جيمعها عنـــد الجســـر.. كانت تابعة لجيش الدفاع الإسرائيلي..

تواريت خلف الصخور.. ثم نزل من العربات أشخاص عديدون سمعت جلبة بين الجنود.. أحسست أن قائدا هاما قد حضر.. بلمح البصر كانت الدورية قد اصطفت لتحية القائد وسرت بأعماقي نشوة أنعشت فؤادي من الطرب والزهو.. هو ذا صيد ثمين..

- أفرغ رشاشك واسترح.. فرصة رائعة لصيد ثمين.

كانت أنوار السيارات ما زالت مضاءة.. استطعت أن أميز من بعيد ثلاث ضباط لا بد أنهم ذوو مكانة عالية.. سأركز رشاشي نحوهم. وأفرغه إلى مالا نهاية.. قد انتهي قبل أن يفرغ الرشاش.. سريعا تتالت في مخيلتي صور الأطفال الأبرياء والشيوخ والأبطال الذين استشهدوا وكلمات أبى الفتية.. وفوق كل شيء وطني الجريح.

ثم صوبت رشاشي نحو الضباط الثلاثة.. فتحرك أحدهم.. أتهرب أيها اللعين.؟ ووجهت رشاشي نحوه.. انتظرا أيها الضابطان.. ثم عاد الضابط إلى صاحبيه فضغطت لحظتها على الزناد.. انطلقت الرصاصات تمزق الصمت.. كانت بالنسبة لي غنوة إلهية توقظ سكون الليل من سباته فوزعت نيران الرشاش على الجانبين.. لم أعرف كم قتلت.. أفرغت رشاشي في ثوان.. ورحت أتسلق الصخور وأنا احتمي بين سيقان

الأشجار من النيران التي كانت تتصيدني.

ظللت أركض مع أنى شعرت بسخونة تسير بانسياب في فخذي وتمتد في خطوط طويلة.. وأنا اركض بنشاط، أركض، حتى وصلت أطراف المدينة فاقد الوعي لم أدر عن نفسي شيئا.. وفي صباح اليوم التالي فتحت عيني وأنا أتمتم. كم قتلت.؟ كم قتلت؟

كثير يا بني.

ولاذت أمي بالصمت..

ثم صرخت "أين أنا؟.."

كان أبى بجانبي فربت على كتفي.. وقال أحضرك رفاقك إلى هذا الكهف، كان الكهف معتما ورطبا.

استطرد والدي إنهم يبحثون عنك في كل أنحاء المدينة..

- هل ماتوا جميعا؟!

وابتسم أبى نعم..

وساد صمت.. وأغمضت عيني.. ثم تلمست موضع الجرح..

- هل تظن أني قمت بعمل كبير.؟

- وهز رأسه وابتسم.

- لكنني خالفت أوامر القيادة.

- عمل بطولي يا بني.

كانت يا أبي لحظات لم اشعر بمثلل جمالها، حينما تكلم الرشاش، كانت له نغمة أخرى ليست كالموسيقى أو الغناء أو صوت حبيبة.. إنه أجمل بكثير.. كانت فرصة وصيدا ثمينا.

كم قتلت لماذا لا تقولان لي؟

وابتسم مرة أخرى وربت على كتفي:

- استرح الآن من أجل رشاشك على الأقل.

- أين الرفاق يا أبي أريد أن أراهم.

- يقومون بواجبهم.

- أبي حينما تكلم الرشاش كنت في دنيا غير هذه الدنيا.

- "نعم نعم" قالها وهو يهز رأسه.

وخرج أبي. وأمي جالسة بجوار رأسي.. سرحت قليلا وذهبت في سبات عميق وأحلام جميلة لم استفق منه إلا بعد ساعات طويلة من نوم لذيذ.

أيلول –سبتمبر 1967

الطريق يتجه نحو الغرب

مدينتنا لا نبض فيها لحياة. وأنا بها منفي.. جئت طـــوع اختياري، تركت بلدتي من الجبن.. لقد حلت اللعنة.. يا أجـــراس البؤس لا تتكلمي.. نوحي على الملائكة الذين دفنوا رؤوسهم في التراب.. حانت أيام اللعنة. أيتها الأجراس لا تتراقصي. كفي عن النباح انك تصمين أذني.. أما أنت أيتها الراقصة هزي أردافـــك أكثر من اجل السيد.. والسيد يقول أيتها المياسه الفاتنة قدك جميل متناسق، منتظم كاصطفاف حرس الشرف عند التفتيش.. رقصك يشجيني.. غني لي..

- يا سيدي إنها لا تجيد الغناء.
- إذن أريد غيرها.. لتكن أجمل منها..

السيد في عنان السماء.. لكن السماء تمطر نارا.. السيد يغضب.. السماء تمطر غضبا.. يا سيدي خاتم ســـليمان بيـــدك والنساء في عالمنا برخص التراب.

- إذن ايتوني بغيرها أيها الصبيان.
- أيتها الفاتنة لماذا عيناك مرهقتان؟

يا حبيبي كنت في دور تمثيلي.

- وهل التمثيل متعب.؟

وهزت الممثلة رأسها.

السيد يظن أن التمثيل شيء هين.. حقا.. لأننا كلنا في دور تمثيلي نحيا، وأكثرنا بؤسا ذلك الذي يعيش والناس من حوله كلهم يمثلون.

- أيتها الممثلة شفتاك ريقتان.

- من أجلك أيها العزيز.

- وأردافك ممتلئة.

وصمتت الممثلة وأخذت تداعبه.. وأناملها تتخلل شعره.. ثم همست في أذنه أصحيح أن النصر لنا؟. وصاح السيد بكل تأكيد، فأجابته الخصم أقوى منا.! فانتفض من السرير غاضبا.. نحن أقوى بلا شك.

ورفعت ساقها قليلا قليلا فبلغ ريقه وعاد إلى جانبها مسترخيا، وقالت سمعنا أن عندهم طائرات كثيرة.

فأجاب ونحن عندنا أيضا.. وطبعت على شفتيه قبلة وماذا عندكم؟.. ودارت كؤوس الخمر..

* * *

اللعنة عليك أيها الساقي دارت في رأسي عربدة مجنونة.. من رائحة خمرك على بعد مئات ومئات الأميال.. سكرت من الرائحة أنا الذي أعرف الله "الله يا بني يحفظك ويرعاك من الحرام وأولاد الحرام وبنات الحرام".

دخلت رائحة الخمر عيوني- شـــرب الخمــرة وبيعـــها حرام.. حرام أن تنام مع ساقطة لكنه شيء لذيذ.. أنـــت لســت سيد.. الخطايا تكفر.. عصرنا عصر تكفير الآثام.

- للسادة فقط..

أيها المساء لا تنضب دع الظلام يمتد أكـــثر فـــأكثر .. فالسيد ما زال ينام، لا تزعجه بذهابك.

أما أنا فأدور.. أشم رائحة الخمور.. والنساء المصلوبات على الأسرة.. لكنني دونما جدوى أتعثر في المسير.. قد كان لي من زمن ذكرى بطولة.. أيها الأبطال لا تخافوا. الجبن عـــار.. اضربوا بالنار لا شيء كالموت..

يا سيدي رصاصكم دخان.. وعدت أدور في المدينـــة.. مدينة اللاجئين والتلال المجللة بصمت مرعب.

رصاصكم استحال إلى بصاق في وجه القديسين. وأنــا ملعون.. والملاعين كثيرون في عصرنا.. ملاعيـــن المنفـــى.. والملائكة الذين دفنوا رؤوسهم في التراب.

الملاعين كثيرون كثيرون جدا.. أما الأنبياء فما زالـــوا يمسحون عن عيوننا شقاوات أيامنا.. في المدينـــة الميتـــة التـــي احتضنت اللاجئين مرغمة، حين زارني النبي وقال:- حاول أن تسير في الطريق الغربي، وأنت رافع رأسك، استغربت زيارتـــه

وكلامه.. ومشى،.. لم أكن أدري أنني أسير ورأسي مطأطأة.. ولا اتجه نحو أي سبيل.. وحاولت أن ارفع رأسي لكنها كانت مثقلة.. ها قد حلت اللعنة. سرت في ذات اليوم في جنازة جارنا العجوز القديم في بلدتنا الغريبة.. كانت جنازته في المدينة حفنة من الرجال.. أقل من المقام.

- من مات في المنفى عليه اللعنة.

يا أيها الإنسان تخلص من مشاعرك، ودع الآلام تبارك خطوك، فالمسيح صلب منذ زمن.. لا تنس ذلك أبدا.. أرضه مصلوبة أيضا من شمالها إلى شرقها ومن جنوبها إلى غربها..

- لكن العيون بلا كلام.

* * *

والصمت يغرق في الصمت بلا معنى.. والوجوم يخفى في الوجه علائم البؤس.. المسيح صلب منذ زمن.. لا تنس.. مصلوبة أرضه... لا تدع النسيان يتكلم.. أنت في أرض المنفى.. انظر خلفك.. الصلوات تتلى حتى تصل السماء.. أما اليوم فالجيب ممزق والنقود ثقيلة إلا أن جيبي لا يحتوي النقود.. في المدينة المنفية.. غذاؤنا الزيت والزيتون والزعتر نعمة.. خير نعمة.. تكفي حتى اللقمة.. جع حتى تمحو اللعنة.. اللعنة في فوهة زجاجة خمر معتقة بين شفتي فاتنة ممثلة.. النساء

ساحرات.. مصمص شفتيك..

يا بني:- الله يبعدك عن أولاد الحرام وبنات الحرام.

أبي مات بأرضه.. كان ثائرا إذا جاز إطلاق هذا المصطلح الحديث على المجاهدين، ذاق طعم الجوع لكنه مكان بمذاق آخر.. وذاق طعم الموت لكن اللعنة لم تحل عليه.. مات حيث لم يشم رائحة خمر السادة، أو لفائف تبغهم المحشوة، أو لحم النساء الرخيص.. كان يقايض بمتعته بسهرة في ليلة برد قارس في الجبال.

أما نحن جيل المنفى جيل اللعنة التي هبطت علينا في أيام ست كما خلقت الأرض تماما هي لعنة الهية جديدة.

أيها المخلص بك سنمحو اللعنة.. المخلص يشكو من الملائكة الذين من حوله.. فعمت من احبهم اللعنة.

أيتها المدينة الميتة.. أيتها المنفى التي تقبر المشاعر.. ويخنق الارتباطات.. لنستحم من بركان الخطايا.. ما عاد لجيل الملائكة جدوى.. ونحن لماذا نهرب؟.. يا لبؤسنا نفي اختياري نرتضيه لأنفسنا.

- أصابتكم اللعنة في كل سماء وكل كتاب.. صوت سماوي يخاطبني ".. مت كموت أبيك، أحضن تراب الأرض، واعتصر منه الشراب".. التراب.. غالي الثمن.. الملائكة مرغوا

رؤوسهم بالتراب.. أيتها الممثلة أردافك جميلـــة.. الثمـــن غـــال وللأسياد فقط.

موتي بغيظك موتي.. انطفأت شعل المجد اللامجديـــة.. ضاعت القشور الذهبية ومرغت الملائكة رؤوسها فـــي الـــتراب ومضغت الحشيش والتبن كالبهائم، ودقت أجراس اللعنة عليـــك وعليهم.

أيتها الممثلة نحـــن الملعونيـــن: الممثـــلات والملائكـــة والمنفيين. سرنا في طرق ثلاث وعند مفترق ثلاث طرق كـــانت جدتي تقول:

(وسار الشاطر حسن ثم سار حتى وصل ثلاث ســـكك.. سكة السلامة وسكة الندامة وسكة من يدخلها لا يعود منها أبدا).

وتسابقنا على الدخول. الممثلات وقفن على باب الســـكة التي لا يعود داخلها، ودخلت الملائكة معهن.

أما نحن المنفيين فدخلنا سكة الندامة.. ســـرنا طويـــلا.. وكان علينا ألا نسير وألا نتحرك.. ثم نعيـــش ســـاعات نمضـــغ الكلمات، لهونا لا شيء سوى الثرثرة..

- أيها المخلص تحرك. اضرب ضربتك..

- يا للزمن القاسي في هذه المدينة الملعونة.

* * *

في هذه المدينة التي يحكمها أوليـــاء أحفـــاد الأنبيـــاء.. احترقت دموع غزيرة تكفر عن سكة الندامة.. وعن اللعنـــات.. طوى الشارع صمت مغرق.. عيون النور لا تتكلم.. حتى صوت العربات أجهض.. نباح أقدام السائرين أخرس..

أما أنا فكنت أسير والشتاء بليله الطويل يئـــن مـــن آلام الصمت. الرعد يصرخ في وجهي حلت عليك اللعنة أيها المنفى.

- أيتها السماء ارحميني كان أبي ثوريا..

ورنت الضحكات السماوية تضرب جوانب الصمت فـــي شوارع المدينة.. أبوك ثوري.. ومن أنـــت؟. فـــارس جبـــان.. منفي..

- أيتها السماء خلصيني من خطاياي.. لن أظل وحيـــدا في هذه الأرض.. مات أبي في الجانب الآخر وأمي عجوز لـــم تقو على السير ولم تترك بيتنا الغربي.. وهل أجد هنا اللقمة كي أبعثها إليها.؟

أيها المخلص ألم يحن وقت زوال اللعنـــة؟.. أريـــد أن أموت كي اطهر رجس لعنتي، أيتها المدينة الكبيرة، مـــا زلـــت أجوب الشوارع الفقراء فيك.. والناس صخور عيونـــهم عيـــون دمنى.. كلماتهم جوفاء:- "ثوريون نحن.. النصر لنا إذا تكلمنا".

أيتها الكلمات العظيمة لا تخرجي من أفواه الجبناء.. فهنا

يقايضون بطعام المنفيين.. يسرقونه.. بـــاعوا اللحـم المعلـب والبطاطين.. موتوا جوعا، موتوا بردا، أيها المنفيون. وســادتنا في قصورهم لينعموا بالا.. اللعنة على الفقراء.. أيها البؤساء لا تتكلموا ليس لكم أي حق، هذا ما قاله مولانا.. ولثم نواب الفقراء يد مولانا.. سرق البطاطين!! يا له من بطل.. أكل طعامنا.. باع أرضنا.!! يا له من بطل.

الصمت لأشجع الشجعان.. "وأقفلوا فمه بزمردة كبيرة"..

يا مولانا يا حارس المدينة.. هاها.. قد صنعت المعجزات.. مـا ذنبك أنت؟ كانت السماء قد صبت لعناتها.. أما لعناتك الســماوية فكانت لا تستطيع المقاومة لا تملك أنت ســوى إحـدى عشــرة لعنة..

(الله يلعنك ويلعن أبوك ميت لعنة).

أيها المخلص إننا على بعد مئات الأميال..

نرقبك، نموت غيظا من هذا البطـل المزعـوم.. القـط المستأسد.. احرقونا.. أو احرقوه.. أو دعونا نحرقه.

* * *

قال صوت من الجامع الكبير:-.. وأنت تحدث‘، تلفـت ورائي باستغراب.. صوت من المخيم يقول:-.. وأنت تحــدث.. الساعة في الميدان تقول:- تحدث.

الأطفال يقابلني ويصفقون ويقولون من أنت؟. تحدث..

أنا لا أكذب.. هكذا بدأت كلامي.. أعيش هنا بلا عيـــون أو لسان.. في مدينة.. عيونها الرياء.. أيامنا تافهة نأكل الكلام.. ونشرب الثرثر.. وننهش لحوم بعضنا وحين ننتهي.. نهتف يحيا المخلص.. أما أيدينا فخالية الوفاض طريــــة، محــرم علينـــا أن نمسك قلامة أظافر لأنها قاسية.. ومولانا أظافره طويلة.. باعنـــا ليشتري المانيكير لأظافره.!

الصوت يضرب في أعماق ذاتي.. من نفي نفسه عليــــه اللعنة.. أبوك مات في الجبال.. وأنت تسير في شوارع المدينـــة بلا خجل.. عيونك ترقب الفتيـــــات تلعــق ظـــهورهن، تنـــهش سيقانهن.. والناس في الجانب الغربي خلف مدينتكم الميتة يأكلون البقول ويمسكون الفئوس ويذكرون اسم الله، إذن احرقوا حكمكم وأمثالكم.. أبي ثوري تقول أمثلتكم:.."الآباء يــــأكلون الحصـــرم والأبناء يضرسون، ماذا أكلت يا أبى؟.. جسدك ذراته عصــــير برتقال وليمون.. وأنا امتزجت بالاغتراب واللعنة، أيتها المدينـــة اقفلي أبوابك.. أم أن سور اللعنات يحميك.. ادفنوا أطفالكم أيــها الرجال بعيدا عن اللعنات.. في الجانب الغربي يــذوق الرجـــال الموت.. الجوع يذوقون الأطفال، ألا انهم زوبعة من نار. فتيان

يتخطون ضفاف النهر لكنهم إعصار.

*   *   *

لكن المدينة لا تنطق.. أخرست السنة الكلمات منذ بداية الرحيل.. السيد.. والملائكة والممثلة.. ومولانا.. واللعنات، كلمات تحمل للمدينة دلالات.

وها أنا أسير في المدينة.. أنظر إلى المسجد.. فأرى ساحة المدينة.. شوارعها جبالها.. وأسير وكأني في طريق لا نهاية له.. يوقظني صوت المؤذن الله اكبر الله اكبر.

*   *   *

زامور خطر عسكري ظننته لسيارة إسعاف.. قدمت تحمل فدائيا جريحا.. رأيت الحياة تموت فجأة.. الجند يتحركون.. الشرطة تنهمك في أداء دور ما، زامور جديد يأتي.. ينعدم لهاث السيارات.. تكف الأرجل عن الحركة.. تراقب الدراجات النارية على الصفين والعربة الأمريكية الفاخرة مقفلة الأبواب، زجاجها لا يكسر.. ورقابنا أعشاب برية تكسر ولا تجبر، مولانا في الموكب والحراس على الصفين. اعزفي يا موسيقي العار.. ضاعت صلواتنا دونما حراسة.. بيع ترابنا في زجاجة.. وأسملت عيوننا دونما التفاتة.

ابصق في وجه المولى.. أيها الجبان ابصق لا

فائدة من وجودك.. منذ زمن حلت عليك اللعنة اغسل عارهـــا.. ابصق.. اقتل نفسك تحت عجلات العربة الأميركية.

لتسقط يا مولانا..

أيها المخلص قلبنا لم يعد به نبض، أضحي له صـــــراخ الثكالي..اقفل فمك.. لا تصرخ.. يا عار المنفيين لــــن تغســل.. ليسقط مولانا أيتها الملائكة انتحري سواد عينيك أضحي عارا.. أيتها الممثلات اقبلن.. مولانا يعشق الممثلات أيضا.. يدفع الثمن كالملائكة تماما.. بل واكثر فهو سيد أيضا، لكنه سيد الأسياد..

* * *

هتفت أيتها المدينة اسقيني جرعة ماء تبل ظمأ منفـــــى.. بلا إجابة ظلت المدينة ترنو إلى .. المدينة ظلت خاوية بلا ضياء أو هتاف.. الجدران تنطق بدلا من البشر.. والملصقات كانت قد غطت أجزاء كثيرة منها بألوان مختلفـــة الحمـــراء والخضـــراء والصفراء والبيضاء..

والشوارع الطويلة المتعرجة تتدفق بسيولة غير مألوفـــة نحو الغرب.

والأضواء ظلت كابية لا تريد أن تسطع ريثمـــا تغســل اللعنة.

سرت نحو بيتي في هذه المدينة.. إلا انه كان قد ضـــاع

أو انه دفن مع رؤوس الملائكة، وظللت أدور في شوارعها.. لكن اللعنة لا تحمي إنسانا.

اصطدمت بعمود النور.. ذهبت في غيبوبة الصدمة.. وهبت ريح خفيفة، في لجة سبات عميق غرقت.. حلمت بسكة السلامة التي قالت عنها جدتي وبالطريق الغربي الذي أخبرني عنه النبي.. لم اكمل حلمي حيث أن الهواء الغربي اخذ يشتد فاستيقظت وابتدأ المطر يتساقط.. وأخذ يغسلني، ووجدت نفسي مرتميا في شارع طويل يتجه نحو الغرب فأيقنت انه سكة السلامة.

تشرين الثاني – نوفمبر 1967

الخطيب

وقف الخطيب صامتا؟. كصمت المنبر الذي يعتليه.؟ ثم تمتم بكلمات غير مسموعة أني لا أستطيع أن أتحدث إليكم.. الله يقف حائلا بيني وبينكم.

سادت فترة صمت طويلـــة.. الآذان مســترقة السـمع والعيون تحاول الاستفسار.. لحظات الانتظار ساعات محرقة.

ابتدأت دمدمات وهمهمات.. تحاول سحق الصمت، ثـــم ضرب الخطيب يده على سطح المنبر، انطلق صوت الضربـــة كخشخشة عبر أسلاك ناقل الصوت ليصل آذانهم؟. فساد صمت جديد لكنه ذو طعم مغاير..

وأحس الناس أن أمرا خطيرا سيتحدث عنــه خطيبــهم المفوه.

الجماهير وكأن على رؤوسها الطير وقف.. وبتعــاطف جماعي خيم على الموقف ذلك النوع من الصمت الــذي تكــون الكلمة فيه تساوي رقبة.

ثم تنحنح الخطيب.

همس أحد الموجودين بعد أن حطم جدار الصمت.. هــا انه يستعد ثم أجابه جاره أتخمن ماذا سيقول؟.

قال الأول أهناك مؤامرات جديدة.؟

الآخر يجيب وهو يهز رأسه.. بكل تأكيد بكل تأكيد..

فهتف الأول.. تسقط المؤامرات والمتآمرون.

انطلقت صرخات مدوية من حناجر الجماهير مرددة تسقط المؤامرات والمتآمرون، هتف الأول تسقط الرجعية والأمبريالية.. عاش كفاح الشعب.. فدائية.. فدائية..

رددت الجماهير الهتافات بحماس واندفاع..

ابتسم الخطيب بسمة واهنة ساخرة.. كأنه يريد أن يقول لهم هتافاتكم ضجيج صرخنا وهتفنا.. بحت الحناجر وماذا تم.؟

خطبت فيكم حتى أصبحت خطيبكم المفوه.. ثم ماذا؟ اسألوا أنفسكم ثم طرق على منبره ثلاث طرقات.. وساد الصمت.. وكأن الطرقات السنة من اللهب تلتهم كل الصرخات الهائجة أو تلعقها.

عدل الخطيب ومن وقفته، وحدث نفسه، قد تكون وقفتك الأخيرة مع جماهير أحبتك وأحببتها انه فراق صعب أليس كذلك.

ثم استعاد بعضا من شجاعته ليحدثهم.

أول كلمة.. كان يود أن ينطقها.. كيف نطقها؟ وكيف ضاعت الأخرى في جوفه؟.. وخاطب نفسه.. أنت بالنسبة لهم زعيم وبطل.. ولا تقوى على قهر نفسك.. مأساة.. مأساة.

وهز رأسه هزات متتالية بحركات لا إرادية فدوى هتاف

الجماهير عاليا.. عاش الخطيب.. عاش الخطيب.. أحس أن تلك هتافات موجهة من عدو لتطعنه في صميم كبريائه وشجاعتـــــه.. أحقا أنت خطيب الجماهير ومحبوبـــــها.. إذن تكلـــم ثـــم نطـــق "اخوا..." وابتلع نصف الكلمة الآخر في حلقه.. قاطعته الجماهير بهتاف مجلجل!:- الصراحة والصدق ســـبيل الحـــق.. المـــوت ارخص ثمن.. الموت الأعداء الثورة وصرخ شخـــص مرفـــوع على الأكتاف قل ما تشاء ونحن وراءك.. اخذ الخطيب يبحـــــث عن كلمات ملائمة تعبر عما في نفسه بلا جدوى.

أخواني: قالها بشدة وحزم.

وأنصت الجميع ثم كرر أخواني أبناء هذا الشعب..

ووصلت إليه هتافات عاش الشعب وعاشت الثورة..

"إخواني ما جئت هنـــــا كـــي أثـــير حماســكم لتـــهتفوا بشعارات.. جئت هنا كي أقول الثورة في خطر..

وسرت دمدمات بين الجماهير الثورة في خطر.. وعلت من جديد الهتافات الموت لأعداء الثورة نحن فداء الثورة.

إخواني جئت كي أقول أن الثورة في خطر، استمعوا ولا تهتفوا.. وجاء صراخ مزمجر وماذا بعد.؟ استجمع الخطيب شجاعتـــــه- وهو الذي لا يقاطع في خطبة أبدا- قال:- وماذا بعد؟ ألخصــــه لكم بكلمات قليلة.. أن الثورة في خطر، الخطر يكمن في هتافاتكم

وشعاراتكم.. أني العن شعاراتكم وهتافكم.. أن الثورة الحقيقة أن نبحث أيها الاخوة عن المعنى الحقيقي للشعارات.. أيها الاخوة أني العن هتافاتكم وشعاراتكم.. وعلى الأرض وثوارها السلام.

وانسحب الخطيب من على منبره فور قوله كلمة السلام.

صدمت الجماهير وأصابها الوجوم.. وبعد ثوان عادت إلى بعضهم قدرة لتفسير الأمور ماذا يعني العن شعاراتكم وهتافاتكم هل يلعننا بطريقة ما؟! حاول البعض أن يفسر واخذ البعض يتساءل:- جاء ليخطب، وهتفنا له وللثورة، وأكد انه سيتكلم عن الخطر الذي يهدد الثورة، لكنه لم يقل سوى أني ألعن هتافاتكم وشعاراتكم.

اخذ الموقف تفسيرات عدة، البعض أصر على أن يحطم رأس الخطيب الذي أهان الجماهير ولعنها، وآخرون تمعذورا له.

وسار الخطيب ومدفع رشاش على كتفه إلى قاعدة رقم (14) في أغوار الأردن والبدلة الترابية وقبعته تحت إبطه وكرر اللعنة ثم اللعنة..

شباط – فبراير 1969

إهداء

إلى أحبائي هناك في الأرض المحتلة حيث كانوا يتلافون في أعياد الميلاد عند بوابة مندلبوم بحثا عن قريب أو صديق أو حبيب..

ثلاثة أيام في القدس

يا عيون القمر ابتسمي.. من بوابة مندلبوم تصافحت اكف السماء، الإنسان يبكي، الإنسان يضحك، الإنسان يتحسر، الدموع تنهمر، واللقاء به حرارة غير مألوفة.

شرطي ذو لون مشرب بسمرة حنطية على جانب يتجول، وعلى جانب آخر شرطي ذو نجمة سداسية، وبينهما سلك شائك.

صرة تناول ثم أخرى، أطفال عيونهم تشرئب لتعانق بطهرها عمق اللقاء، أصوات المؤذن تختلط بأجراس كنيسة القيامة.. من بعد تصل. سأشربك رويدا رويدا، اليوم نحتسي كؤوس الخمر وننام. عيد الميلاد أهل. ثلاثة أيام.. سنقضيها بين الأهل والأحباب. نعمة تلك الأيام. سنعانق الأحباب.. وننعى ذكريات الصبا وعهد الطفولة..

بطاقات تسمع بالدخول، وأخرى تسمح بالهمسة ولنظرة

فقط، ثلاثة أيام تقضونها بين الأحباب في القدس..

كل تلك الصور دارت في ذهني، إذ بالشرطي يهمس في أذني احضر لي معك سبحا من (أورشليم).. ادخل نقودا إن شئت.. وغمزني باسما بسمة معلولة، بصقت وغمغمت أورشليم.؟! نقودك ورق خريفي ذابل، أتنطق بأورشليم أنها تنام دون جفون حيث أحرقتم جفونها. دخلت المدينة وفي الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي فما وجدته، أني أقوم واطوف في المدينة في الأسواق في الشوارع اطلب من تحبه نفسي فلا أجده، وجدني الحرس الطائف في المدينة وددت أن أقول ارأيتم من تحبه نفسي؟ زرت المدينة القدسية.. أنفاسها حنونة عيونها عطرية، طرقاتها إحساسات طيبة، جدرانها تغني، أطفالها يصلون. رجالها مقدسون والشرطة يسيرون بها واكتفاهم تهتز، والعصي بأيديهم دونما فائده تتحرك اماما ثم خلفا ثم اماما، وأنا اسأل- بعيني: هل وجدتم من تحبه نفسي؟. وبلا إجابة ظلت عصيهم تتحرك، وظهورهم تصفع جبيني وكررت هل رأيتم يا حرس المدينة من تحبه نفسي.؟

هنا غرست غصنا زيتونيا منذ طفولتي، وعشت في الجانب الآخر من المدينة حيث مزقونا بشوك حديدي ومسامير قلبية.

أيها الأحباب زيت الزيتون مغذ. هل ذاق من تحبه نفسي طعم زيتوني؟!.. كبر الزيتون ونما، تساقط الثمر ثم ذوى.. الجاني من.؟ قبضت أناملي على غصن من غصون زيتوني .. سألته:- أين من تحبه نفسي؟ فبكى.. يا ألم الفراق.. قال لي أنا معذب.. وربت عليه وعانقته.. غرست غصننا في قلبي وطرقت شوارع المدينة المقدسة، ترن .؟ ترن.؟ أجراس الكنيسة ترن. وقبر المسيح ما زال هنا؟ سأقبله عودتي أمي ذلك.. لك جنات النعيم.. القدس مصلوبة من اجل المسيح الذي صلب بين أحضانها اصلي.. من تحبه نفسي أين.؟ من اجله أصلي.؟

الشرطي على رأسه نجمة ذات ستة أطراف سهمية.. أحضر معك سبحا من أورشليم. ومصمص شفتيه حينما رأي (العريس) يقبل عروسه عند بوابة الأحزان.. يا أختي العروس مبروك. الجنة بين عينيك كأحلام بعيدة المنال اليوم تتحقق، أنا ادخل الجنة منفردا.. أين حبيبي؟ فتحت لحبيبي خاطري لكنه تحول وعبر.. نفسي خرجت عندما أدبر.. طلبته فما وجدته دعوته فما أجابني.. وجدني الحرس الطائف في المدينة.. من أنت؟ ماذا تصنع.. ضربوني.. ضربوني.. حفظه الأسوار رفعوا ازاري عني..؟ الساعة تصيح بعد منتصف الليل بساعة ماذا تفعل.؟

هذه جنتي، جنتي وأبحث عمن تحبه نفســـي.. العيــون تتشابك خلف بوابة الأحزان: وسلم عليه.. وقل له اللقيا بعد عام أن شاء الله.. ادع لي في كنيسة ستنا الغــذراء، أمانــة.. قبــل الصخرة المشرفة.. زر مسجد عمر..

عانقيني يا مدينتي من أجلهم.. زر الحاج محمـــد بلغــه تحياتنا.. كذلك على خطيبتي لا تنس أن تسلم.؟

الحبيب ظل يدور كالنحلة الظامئة..رحيقها جنـــى مــن القدس الممزقة على بعد خطوات.

أنت جميلة يا حبيبتي كالقدس مرهبة كجيــش بألويــة.. حولي عني عينيك فانهما قد غلبتاني.؟ أنت أيتها الحبيبة قدري.. والقدس جنتي المدينة الصامتة تحتضني بحنان.. ادخــل بيتــا.. أقول للرجل هل رأيت من تحبه نفسي.؟ الرجل مشغول بالمذياع يا مرسال المراسيل سلم عحبيبي؟. اصرخ يا سيدتي هل رأيــت حبيبتي.؟ سيدتي. سيدتي، دونما التفاته ظلت سائرة بحياء غريب لكنها لا تلتفت. تكون هي حبيبتي.. لم لا في عيونك ســماوات ساحرية بها همسات من عيون حبيبي.

مر طفل وبيده سبح ينادي: يا حجــاج بيــت المقــدس هداياكم لأحبابكم السبحة بخمسة قروش، من أرض اليســـوع

ومريم، من أرض الإسراء والمعراج.. اهدوا أحبابكم سبحا ثـــم أخذ الطفل يركض..

شاهد حفنة من الناس قد تجمهروا، ركضت مثله. وأنـــا ألهث سألت هل من تحبه نفسي فيكم.؟ نظرت فما عرفت.. كـــل العيون تنظر إلي بنظرة واحدة. زرت القيامة، داخلها الأصوات تصطك بالأيقونات المذهبة وترتد عائدة إلى أعمـــاق الداعيـــن. وعلى خطوات يقع مسجد بناه عادل اسمه عمر.. أيها المســـجد هل رأيت من تحبه نفسي.؟ بعد الصلوات المصلون ينظرون إلي بنظرة واحدة وما فهمت من نظراتهم شيئا.. هل من تحبه نفسي بينكم..؟

دخلت المسجد.. يتمتم الناس.. ربنا انصرنا.. عيونـــهم تنطق بكلمات واحدة وما فهمت من نظراتهم شيئا..

سأعود إلى المدينة اجولها من جديد.. ابتدئ بكنيسة ستنا العذراء حتى المسجد الأقصى. إلى كنسية القيامـــة إلـــى بوابـــة الأحزان.

تمر في خاطري صور شتى عديمة الألـــوان متميعـــة.. حبيبك مات.! وفزعت، مات.! كلمة ماذا تعني.؟ أنها قد تعني كل شيء إلا انه انتهى.. بل قد تعني انه انتهى، لكنها لا تعني أنى لن أراك.؟ خلف هذا السور التقينا تبادلنا القبلات.. عددنا لذكريات..

محونا آلام الفراق.. والفراق مر ينزع سعادة السعداء.. وعدنـــا فما وجدنا الأحباء.. عدنا لنغوص في الذكريات.. فمـــا وجدنـــا الأحباء.. ضم عينيك يا حبيبي من بعيد إلـــى عينـــي.. نـــورك سماوي في (الطور) قد أجدك.

بحثت في العمارات والفيلات وما وجدته. دخلت المغاور والخيام والأكواخ فما وجدته انتهى اليوم الأول.. والثاني..

أكلت من القدس الحلوى، شربت ماء من آبارهـــا أروتنـــي ثـــم أشعرتني بظمأ ألهي لا يقاوم.. سأعود اليوم .. اليوم الثالث عند البوابـــة.. يقابلني الشرطي ذو النجمة السداسية.

- أ أحضرت السبح معك..؟

- لا ثم لا.؟

- إذن السجن لك أيها المهرب..

- وماذا.. ليست أول مرة تلفق فيها التهم.؟

يا قدس أودعك.. سأمر من بوابة الأحزان بلا سبح أو هدايا انتـــم أيها الناس هل رأيتم من تحبه نفسي.؟ ألقيت نظرة أخيرة على سكان المدينة ولكن عيون الناس تنظر إلي بنظرة واحدة لم افهمها.. حينما عبرت البوابة وقابلني الشرطي ذو النجمة السداسية ونظر إلي.. استرجعت نظرات الناس في المدينة لكن عيونهم تنظر إلي نظرة واحدة وكأنها تقول كلنا أحباؤك.

كانون أول - ديسمبر 1976

كان يرتدي قميصا أحمر

أخذ ينظر إلى قميصي حينما زرته بالأمس، وقفت حائرا ماذا أقول له.؟ منذ أحداث أيلول وأنا أتردد في مواجهة لحظة لقائه.. لست ادري لماذا تخالجني مشاعر الإحساس بدنو الموت حينما أتذكر (أبا فريد)- وهذا هو اسمه الحركي.. ورغم أننا زملاء دراسة، إلا أن تلك الرصاصات التي مزقت جسد طفله الذي لم يبلغ من العمر ثلاث سنوات، كانت قد مزقت في علاقتنا شيئا ما، ظل مبهما بالنسبة لي حتى لحظة مواجهته.. لم أذهب لأعزيه حيث لا تعزية تقبل في (أيلول). فالمصيبة عامة وموت عبد الناصر جاء لينسي الجميع آلامهم وأحزانهم الخاصة وأمواتهم أيضا.

وظللت بعيدا عنه، يغرق هو في أحزانه وأغرق أنا في عمل يومي، لا يتيح لي زيارة عمان إلا فترات متقطعة كل شهر.. فأسأل فيها عن أبى فريد الذي اصبح شديد العزلة.. كثير التفكير قليل الحديث، وإذا أخرجته عن صمته فانه يسألك.. كيف استطاع الرصاص العربي أن يخترق جسد طفله العربي؟..

وحينما زرته بالأمس بعد انقطاع دام شهور عانقني، قال إنه يقدر مشاعري الخاصة التي جعلتني انأى عنه هذه الفترة الطويلة.. ساد صمت.. أحس بحرجي فبادرني بالسؤال:

كيف أحوالكم في جرش.؟

أجبته- حصار كما تعلم..

وعجلون.؟

- كذلك عجلون

هل وقعتم في فخ؟

- أظن ذلك..

ما هي خطتكم..؟

خطتنا.. تذكرت أنى سألت واحدا من المسئولين نفس السؤال فأجابني بأننا يجب أن نظل في الأرض مهما كان الثمن.

- التضحية.

افترت شفتا صديقي عن بسمة واهنة.. ثم رأيته ينتفض.. وتصيبه قشعريرة ظننت أنه مصاب بحمى شديدة. سألته إذا ما كان يرغب في إحضار طبيب عاجلني قائلا.. هي لحظة تأتي وتروح منذ فراق فريد.

سألني وهو يبحلق في قميصي.. نظرت إلى مواقع نظراته.. فأستلها كلص وهو يتمتم:-

- هل أدركت كيف يصبح الشعب الواحد شعبين...؟

هل أدركت كيف يصبح القميص الأحمر دليل جريمة...؟

هل أدركت كيف يقتل الرصاص العربي جسدا عربيا...؟

كانت أسئلته متتالية، بانفعال نطق حروفها..

- أجبني.. أجبني..

ثم قام يتمشى في داخل حجرته الصغيرة في (مخيم الوحدات) والتي ما زال موضع الترميم شاهدا على القصف الذي أسقط جدارها..

- إرادة العملاء والاستعمار، قلت له..

لا. لا. هي إرادتنا.. أتدرى طيلة الأشهر الماضية وأنا أحاول أن أجد جوابا وكلما جئت بجواب.. يأتي سؤال آخر.. ولعلها الجدلية.. وضحك بسخرية.

ثم استطرد قائلا أتدرك كيف يقتل العربي عربيا.. بالأمس في عمان.. في كل شوارعها وجبالها ومخيماتها.. ألقي القبض على شاب يرتدي قميصا أحمر أو فانلة حمراء.. هل تساءلت لماذا يقلى القبض على عشرات الشباب؟ هل تساءلت لماذا يحمل شاب يرتدي قميصا احمر لا يتجاوز عشرين عاما قنبلة، ينتزع بأسنانه فتيل امانها ويقذفها على رجال الأمن في عمان؟. هل تساءلت لماذا؟.

حاولت أن أتحدث.. العلاقة ما بين السلطة والشعب.. ما

بين السلطة والثورة ما بين الجيش والسلطة.. ما بين الجيش والشعب.. ما بين الجيش والثورة.. كلها علاقات مقلوبة، علاقات انتابتها الوهن والكلل والسقم أيضا.. هي معادلة صعبة يا صديقي بالنسبة لك أو لغيرك.

قال:

* حين انتزع منك اعترافا بالقتل هل تصبح قاتلا.؟

- تلك قضية ذات وجوه.

ضرب قدمه بالأرض.. ولكن هل تصبح قاتلا.؟ ألا تصبح قاتلا في وجهة نظر من يدينك.. أليس كذلك.؟

- بلى. بلى.

ودارت في ذهني صورة (أبو عيسى) الرجل العجوز الذي قبض عليه جنود أيلول في عمان، وطلبوا منه أن يرفع يديه فرفعها.. وطلبوا منه أن يصلي للسيد، فصلى.. طلبوا منه أن يهتف له، فهتف ضربوه بكعب البندقية.. ثم أمروه أن يركض، فركض.. وصرخوا عليه بأن يقف، فوقف.. عد زحفا، فزحف، وحينما وصلهم سأله أحدهم:

- كيف تذهب قبل أن ترينا هويتك.؟

لقد أمرتموني

- ما اسمك.؟

أجابهم.

- من أي بلد أنت.؟

قال لهم.

- إذن فلسطيني.. فلسطيني.. وتهرب!!؟

انتم أمرتموني.

- أنت ميليشيا..

قال لهم الرجل العجوز ليدافع عن عروبته.. يدافع عن فلسطينيته أنا فلان يا شباب.. متزوج من سعدية بنت فلان.. وسعديه.. قال لهم- والله العظيم إنها (كركية) أبوها تعرفونه.. شيخ قبيلة هناك.. والله أنا زوج سعديه، وسعديه أبوها من (الكرك).

يا شباب.

لكنهم لا يصدقونه.. الفلسطيني لا يصدقونه أبدا.

وما دام "أبو عسيى" فلسطيني فيجب أن يكون فدائيا.. وما دام هو رجل عجوز فسيكون ميليشيا، وإذا كان رجل عجوز ميليشيا فانه سيكون رامي "دوشكا". وقال جندي بندقيته البلجيكية أطول منه وذقنه لم تمر عليها الموسى أبدا:

- رأيتك بعيني هاتين ترمي دوشكا يا ميليشيا..

- اركض..

وركض العجوز.. قف.. فوقـف.. ازحـف.. اركـع.. صلي.. تقدم زاحفا على ظهرك.. ماهر في الزحف كالفدائيين.. فدائي هذا الرجل.

- سنفعل بك كذا وكذا يا ابن الـ ... قال جندي وأوسعه شتما بألفاظ نابية ولكن جنديا آخر قال لهم شفقة بحاله.. اتركـوه إنه عجوز كوالدكم..

فاغتاظ الجندي وشك في صاحبه.. كيف لا يشك وصاحبه (سلطي) متزوج فلسطينية، فأحس ببذور الشك التي تداعب هذا الجندي وقد تكلفه بذور الشك هذه حياته. فقتل رجل لا يساوي أكثر من أربعة قروش في عمان.. ثمن طلقة ليس إلا.. فليدافع عن نفسه وعن أردنية زوجته الفلسطينية.

- اركض أيها العجوز.

وأدار أبو عيسى ظهره وجرى بقدميه الكليلتين يجر بهما أحزان شعب على مدى عشرين عاما.. وانطلقت رصاصات من بندقية الجندي السلطي تخترق ظهر أبى عيسى تمزق حشرجاته وتمزق صمت الحارة.. فتنزف دماؤه الفلسطينية لتمتزج بأرضه العربية.

وعاد سؤال صاحبي.. ولكن هل تصبح قاتلا بمجرد أن يدينوك..؟

قلت له.. نعم العجوز أبو عيسى اصبح مدانا حينما أرادوا له أن يكون كذلك لكنها قضية ذات وجوه.. للجنود ولأبي عيسى ولـــي ولك ثم رويت له حكاية أبى عيسى.

- وهل سمعت بقصة القميص الأحمر..؟

لم أجبه.. رغم أنى سمعتها.. واستطرد دون أن ينتظر أجـــابني بعدما اعتقلوا، عشرات الشبان من ذوي القمصان الحمر.. كانوا كلهم مدانين باستثناء من لم يكن مولودا في الضفة الأخرى مـــن النهر.. هم يريدون قميصا أحمر.. لكن كل القمصـــــان الحمـــر مدانة.

قلت له إن القضية ذات وجهين وحينما تصبح ذات وجـــه واحـــد سوف تجد جوابا لكل أسئلتك.

وجلستنا طالت وبعد أن تناولنا عشاءنا مـــن الفلافـــل والبنـــدوره والبصل الأخضر جاءتنا زوجته بالشاي.. سلمت علينا وخرجـــت.. كـــان الشاي يحضره لنا في كل زيارة شقيقه الأصغر فسألته عنه.

قال وهو يضحك ضحكة لها أكثر من معنى:

كان يرتدي قميصا أحمر.. تذكر هذا، كان يرتدي قميصا أحمر.

فلملمت نفسي ونظرت إلى قميصي وغبت في أزقـــة مخيـــم الوحـــدات الضيقة وعتمتها وفهمت معنى نظراته إلى قميصي.

حزيران - يونية 1971

عراة على ضفة النهر

ترددت في حلقي كلمات خالية من المعنى، وأخذت في تفكير دائري ابتدأ ثم أعود إلى حيث ابتدأت وسرت في جسدي قشعريرة، نسيت إنني عار على ضفة النهر.

- من أنا.؟

كان شعري مختلطا بالتراب ثم وضعت كفي على وجهي، وأخذت أتحسس الوجه، الجبين، الحاجبين، العينين، الشفتين.

- من أنا.؟ أنا ثلاثة. ثلاثة.؟ لا بل اثنان. اثنان.؟ لا بل واحد.. لا بل صفر.

- صفر؟؟ نعم صفر.؟ أنا لا أريدكم أن تعرفوا الحقيقة، اضربوا رؤوسكم بالقنابل إذا لم يعجبكم.؟ عمري ثلاثون، عشتها على الآمال.. وجسدي ممزوج بعصير البرتقال والليمون وزيت الزيتون. ثم امتزج "بزيت الكاكوز"[1] ثم بزيت الأرض.. الليمون والبرتقال كان أبى شغوفا بهما. أبى أني احبك يا أبى..

---

(1) زيت الكاكوز= زيت الطعام الذي يتسلمه اللاجئون من وكالة غوث اللاجئين.

الليمون والبرتقال احترقت فيها الأغصان، وذوت بقايـــا جذور متأصلة، ازرع خيرا ينبت خيرا يقول أبي.. البرتقال لا يزهر أنا أجيبه، السبحة في يدك يا ابتي.. الله ينصرنا.. أدعيتك إلى الله وماذا تجدي.؟ أخرست عيون النطق في هذا الصيـــف.. ها أنا اقف وحيدا هنا.. من يراني؟.. انتم أيها الناس أنا "شوقي" لم لا ترونني.؟ خلفي مرآة وأمامي أخري.. هنا تنعكس صورتي أحصوها واحد.. اثنان. ثلاثة.. مليون إلى مالا نهاية.

ألم ترونها بعد؟ غشاوة سحب الصيف تعمـــي العيـــون، والإنسان لا يرى نفسه في أحيان كثيرة، اغسلوا أعينكم من قاع البحر الميت.. لم تشاهدوني بعد.؟!!

- ماذا يشاهدون منظرك شائه.

- بالطبع إن العرى شيء قبيح.

- لكن آدم خلق عريانا.؟

لم يكن مفردا.. أتمتم، الإفـــراد كالســجن. والعـــرى.؟ أتساءل.:

كالموت.. أجيب:

- الموت أجمل شيء حين يكون حقيقيا.

لم يقتلوني.. لم يفعلوا شيئـــا ســـوى أن ضربونـــي ثـــم عروني.. حين انطلقت الرصاصات كان زميلي بجانبي، فظلـــوا

يقهقهون وهم يراقبوني.. مات.!! ماذا أفعل.؟ الأفضل أن أوارى جسده التراب.. اقرأ عليها القرآن أولا.. الفاتحة على روحــــك.. ومسحت كفي بوجهي.. ماذا اصنــــع بجســـدك؟ وأهلــك مـــاذا سيقولون؟. لم لم يجهزوا علينا معا.؟ هكذا كان اتفاقنا حتى حينما غادرنا بلدتنا كنا قد استخرجنا جواز السفر فــي يــوم واحـــد.,. وسافرنا في يوم واحد.. وعدنا في يوم واحد لكننا لم نمــت فـــي يوم واحد.. قدر الله.. الله.!!؟

هو الصيف الأسود تمرد على سنن الحـــق الطبيعيـــة.. الطريق مسدود الدخان يملأ الأنوف والرؤوس محنية من ضربة الشمس.

– يا شوقي سنعود لنرى أهلنا..

– الطريق يا صديقي صعب واجتياز النهر قاس..

لننتظر ريثما تطير غشاوة الدخان.

– مهما يكن الثمن.

سرنا.. غربتنا لا شيء هكذا تعلمنا.. أتشعرون بالغربـــة كل البلاد بلادكم.. نحن اخوة لا.. أنتم كاذبون.

البصاق في أوجهنا.. يقول نحن بعنـــا أرضنـــا.. بعنـــا أرضنا من قال.؟! يقولون هذا عنكم.. إذن خذوا ذهبكم.. نحـــن أجانب شكرا لكم.. املئوا أفواهكم يا آكلي الضب بأقنية الذهب..

اشربوا منها.. نحن أجانب.. بعنا أرضنا شكرا لكم.

أرضكم ممسوخة.. تركناهم ومشينا.

صديقي وأنا قررنا معا ترك الغربة وأن نعود.

- لكن الموت يترصدكم.

- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

- الرصاص حارق.

- والغربة حارقة.

- الموت قاس.

- الذهب ليس أغلى من الوطن.

وحملنا معنا بعض الأشياء.

هذه هديتك يا أخي جهاد.. أين دبابتي يا شوقي كنت أريد دبابة.

هذه لك يا أمي.. أريد سلامتك يا بني.

وأنت يا آبي هذه هديتك.. شكرا يا بني أأحضرت مصلى..

هدايا عديدة احضر صديقي لأمه.. ليلة واحدة قضيناها بعد وصولنا المدينة.. رتبنا أمورنا كي نصل أهلنا، ولم يكن باستطاعة أحد أن يمر دون مغامرة. ومشينا.

كان حملنا ثقيلا.. لن تمروا بحملكم أبدا.. تخلصوا منه..

ومشينا كان حملنا ثقيلا اهربا بجلدكما إذا اســـتطعتما.. ورمينــا حملنا ومشينا.. تخطينا حدود النهر، كانت عيوننا إصرارا، وظل صديقي يتمتم سأرى أمي يا لها من لحظات سعيدة لكن المـــوت هنا سهل.. الم تسمعوا عن الصيف.!؟ هنا البطيخ ينضج.. بطيخ "جنين" احمر مثل الجمرة، اكسروا البطيخ.. كلوه.. هكذا قالوا.. كسروه فما ذاقوا حلاوته. وجدوه اكثر حمرة مـــن أي بطيـــخ.. ولكن طعمه علقمي.. بطيخ جنين غريب في صيـــف غريـــب.. حتى الموت صار هنا موتا صيفيا..

* * *

قال صديقي آه لو اذوق بطيخ جنين وحينما ســـرنا فـــي حقول "الغور" كنا نشم على بعد رائحة البطيخ المكسور.. وكـــان الغناء ينطلق عفويا من شفتي.. صوتك سماوي يا فيروز.. أيامنا تمر، غاب نهار آخر، غربتنا زادت نهارا.. واقـــتربت عودتنـــا نهارا.. متى أراك يا أبي.؟

وظللت أترنم بمقاطع معينة وأعود لأذوق حلاوتها مـــرة أخرى، وصوتي أجش لكنه مخنوق كان صاحبي بجانبي.. هـــل استيقظ إله القبور..؟ وحينما تثاءب الإله كانت بضع رصاصات قد اخترقت جسد صاحبي..

أوصيتني بأمك.. أمانة ثقيلة..

ثم مات..

أقولها بسهولة إنه مات.. الموت طعمه كطعم بطيخ جنين هذا الصيف.

*　　*　　*

سأواصل المسير.. تنبح الكلاب.. فأخذت اركض.

يا شوقي لن تفلت، الكلاب المسعورة تشم رائحة النسور.. سر ولا تخشى شيئا لن تنل اكثر من رصاصات..

وماذا لو قبضوا عليك.؟ وان، لن يقتلوك، لم أجرم كي يقتلوني! الحياة عندهم أقسى من الموت! وإن.

الكلاب تنبح والرصاص يدور دونما هدف..

اللهم احمني.. الله احمني إن كنت موجودا.. أتكفر يا شوقي.. لم تفعلها مرة واحدة لا تكفر.. لم أذق جذر كرمه.. لا تكفر.. لم أنم مع امرأة.. لا تكفر..

يا رب ارحمني يا رب.. أبي عمره ستون وسبحة يسر قديمة دائما بيده، يردد إلى ربه أدعية كثيرة..

أيتها السبحة لا تتكلمي عهدك مضى..

- ماذا فعلت بسبحتك.. لا تكذب يا بني.. لا تسرق.. لا تزن يا بني.. لا تسكر.. لا، ثم لا، درس علمتني إياه.. لكنك لم تقل لي لا تكن شوقي.. لم لم تقل كن ذرة سماد.؟ جميعكم أردتم

أن تكونوا نباتا.. أما هم فأحرقونا بصيفهم لأنـــهم كـــانوا ترابـــا وسمادا ونباتا..

لم لم يكون الصيف لنا..؟ وكنا عظاما..

- كالطبول.

*　　*　　*

ما زلت أركض وهم يعرفون أني سأقع فـــي أيديـــهم.. تركت صديقي عاريا في الخلاء.

كانت الكلاب تعوي "والضحكات ترن في أذني تمـــزق كياني.. اضربوني أنا أيضا.. لا.. تمهلوا قليلا" ثم عدت للجثة.

كانوا يراقبونني.. ولست أدري أي قوة حلت بي.. وأنـــا أحفر ما يواري جسد صديقي.. للأجساد حرمتها.. يرحمك الله.. لكن أيها الخالق لماذا نموت.؟!

ظلت الكلاب تنبح، وهي تقترب مني..

أجهدت وأنا ما زلت أحفر..

وكل هنيهة ينطلقون مقهقهين.. لم تقهقهون.؟ وبين لحظة وأخري يطلقون النار لكنني ظللت مربوطا بالجثة.

وجالت في ذهني لثانية فكرة.. سأغافلهم وأنام في القبر.. يا للحقارة. الموتى لهم حرمتهم، والأحياء أليس لهم حرمة.؟!

ثم نظرت إلى صاحبي كانت عيناه ما زالتـــا مفتوحتيـــن

ذكرت الشيخ محمد.. للموتى حرمتهم.

وأسبلت جفونه.

وبدأوا في الاقتراب.. كان فكري قد شـــل.. وأحسســت باندحار الحركة في الســـكون. إنـــهم يقـــتربون ولا يتكلمـــون، رشاشاتهم صامته وكلابهم سلاسلها بأيديهم، وأنا أنظر إليـــهم أن من آلام الصمت.. انطقوا رشاشاتكم. قلت يا شوقي إنــــهم لـــن يقتلوك.. قلت وأن .. قلت الحياة عندهم كالموت. قلـــت وأن .. لتذق يا شوقي.. ذق.. ذق.

أسبلت عيني، ثم نظرت إلى صاحبي، كان مسجى وعلى وجهه ترتسم سيماء رائحة أبدية عميقة.. ثم سمعت مـــن يقـــول ارفع يديك.؟ أرفع يدي لماذا.؟ افعلوا ما شئتم.. أعانق ترابـــي.. وصديقي مات.!

ارفع يديك أيها الكلب.. ضربوني ببنادقهم ورشاشاتهم.. البنادق ضرباتها لذيذة.. رفسوني بأقدامهم.. داسوا علي.. أقدامهم وطأت قلبي داست هامتي.. يا الله يا الله احمنـــي.. احمنـــي يـــا رب.. ألن تحميني من هؤلاء الكلاب. كنت اصلي لك. احمنـــي سأصلي لك في المسجد الأقصى الذي باركنا حولـــه.. بركـــاتك تدنس يا رب احمني.. ومد أحدهم يده، ولطمني علـــى فكـــي.:. ترنحت. ثم وقعت.. فرفعني آخر وبصق.. جمعت بقايـــا ريقـــي

وبصقت في وجوههم. لم يخرج سوى صوت جريح.. ضربوني وهم يقهقهون أما كلابهم فكانت مغتاظة منـــهم لـــم لا يعطونـــها حقا..؟

فتشوه! أمر الشاويش.. مائة دينـــار وبعـــض الأوراق.. صادروها. الشاويش يأمر! اقتسموها بسرعة.. أعجبهم قميصـــي نزعوه.. حين وصل أيديهم كان خلقا.. ثم أرادوا الســـروال يـــا للمهزلة.. السروال لا.. هنا الموت.. افقدوا أعصابكم إن شئتم.

وطفح الدم شعرت بقشعريرة تهز كياني، النزيف يرطب جسدي.. وأشعل أحدهم سيجارته. ثم أخذ يحرق شعر صـــدري متلذذا.

صح تأوه أيها الحقير.

يا أبت أني أحبك.. سرقوا نقودك كيف ستعيش أين آخي يا أماه.؟ أين الدبابة.؟ سيحضر يا بني.. أنا يا أبتي أموت هنا آه لو يطلقون النار.

ثم ارتميت لم أقو على الحراك وتمددوا من حولي علهم أرادوا الاستراحة من لعبتهم المسلية.

أيها الكلاب اضربوا أيضا.. اضربـــوا.. لـــم لا أحمـــل رشاشا.. تحسدوننا على بلادنا.. تدر لبنا وعسلا..نبني الفيلات.. نقتني العربات الحديثة.. ولا نسأل.. لم لا تكون هذه دبابات.؟

إذن اضربوا.. ماذا فعلنا يـــا إلــهنا.؟ هــذه أرضــك، مسجدك.. وللكعبة رب يحميها.. ألن تحمها. نصوم ولا نســكر نعبدك، نصلي.. ولا نزني.. نحن عفوتة؟ نصوم نصلـــي نعبـد الله.. لكن نفوسنا ليست بيضاء.. وابتدأ الجنود من جديـــد فــي لعبتهم المسلية، واستعانوا بكلابهم.. إنها ارق منــــهم، كنــت لا أطيق الكلام ولا أقدر على التحرك ثم ارتميــت كــالمصلوب لا أريم، ولا انطق: ابتدأوا يتشاورون.. ماذا نفعل بـــه.؟ نقتلـــه؟ أم نسلمه للدورية التالية؟.

قال أحدهم: لنتركه حتى يحضر القائد.

كانت عربة جيب قادمة فيها ضابط وبعـــض الجنــود. وتكلموا عني.. هكذا فهمت.. ثم أشاروا ألي فقال الضابط لا.. ثم أمرهم بشيء ما وأقبلوا نحوي.. كان حلقي جافا وجرعـــة مـــاء تساوي حياتي..

وابتدأوا في نزع ما بقي من ثيابي.. كنت أحاول أن أرفع يدي لكنها ترتد ثانية على صدري بغير إرادة.. وأصبحت عريانا كما ولدتني أمي.

- ما أسمك.؟

- لم أحر جوابا.

- وركلني الضابط بقدمه.. تكلم يا ابن الـــ...

ولم أتكلم..

اسقوه ماء.. سقوني حتى رويت.. نظرت إلى الضـــابط وبصقت..

- تكلم وإلا سأقتلك..

يا ليتكم فعلتم.. قتلتموني ألف مرة.. لن أتكلم..

ولذت في بحيرة صمت..

- عد من حيث أتيت فنحن كرماء معــك.. لــن نقتلــك

وركلني بقدمه مرة أخرى.. وجروني حتى أوصلوني النهر.

صاح الضابط اذهب إلى شعبك يـــا.. وقــل لــه أننــا عريناك..

ثم رموني على الضفة الأخرى.. وكنت لا زلت أسمع قهقهاتهم.. ولا زلت اسمع صوت أخي يقول أين الدبابة.؟ فابتسمت بألم.. وأبي عـــاد يسألني عن المصلى.. تذكرت صاحبي الذي مات..

وارتميت أتنفس بعمق.. وتحسست جسدي.. فوجدت نفسي عاريا على ضفة النهر..

- اذهب إلى شعبك وقل له أننا عريناك.

شعبي يعرف هذا.. هم عراة أيضا.

تشرين الثاني - نوفمبر 1967

اليوم الحادي والعشرون

أغنية خضراء تغنى.. العصافير تغرد ولكنها لا تعي ما تقول... إنسان على جنبه يحمل سكينا. التيه أنا أضيع في غمارة.. ما قيمة اليوم.. هو ذا السؤال الذي يتردد على الأفواه.

التواريخ عديمة القيمة لأولئك الموهوبين للموت.. القيمة الحقيقية ليست التواريخ والأيام. فقط كيف يزرعون الموت وكيف لا يموتون.؟ هنا تكمن الأهمية.

وسأل نفسه: اليوم الحادي والعشرون.. ما يمكن أن يكون وراءه.؟ هو يوم آخر بلا ضياء أو زهور.. الأغاني الخضراء ليست لنا نحن الذين نموت وعيوننا معلقة بالفل والياسمين وحتى أغاريد الطيور لا أستطيع إدراك معنى أنغامها.

على جنبه مدية حادة.. يمكن أن تغرز في أي لحم. وستنزف دما من من أي لحم.. وقد تقطع حبلا.. أو غصن شجرة.. ولكنها تبقى سلاحا يسمونه أبيض.. يخاف منه ذلك العدو الذي يختال على الأرض وعلى الكتف كان الكلاشنكوف يتدلى.. وفوق الجبين سؤال:

ما قيمة اليوم الحادي والعشرين.؟!

بالأمس كان في عملية أربعة رفاق.. رفاق في كل شيء.. الجوع.. الحرمان.. التشرد.. وهذه أقسى أنواع الرفقة..

إنها تجعل للرفقة لونا مصيريا من طراز خاص، وفوق هذا كله كانوا رفقاء عقيدة ومبدأ وسلاح. سترهم المموهة.. ورشاشتهم وبنادقهم ومتفجراتهم. كالأشباح...

يتقدمون على الجنب كانت تتحرك كرات حديدية.. الموت بداخلها..

الهدف اقتربوا منه.. ثلاثمائة متر.. ويبدأون في زرع الألغام هو ظهيرهم وحاميهم.. الحماية كالموت هكذا قال.. أن يظل الإنسان يرقب شيئا ما وخاصة احتمالات الموت.. شيء مفزع.. أما أن تزرع الموت لمن يذيقونك العلقم فشيء مختلف تماما.. لكنها الأوامر..

العملية تمت بسرعة وإنجاز ماهر.. ها هي الأرض مفروشة بالموت وهم الآن يتحركون بخطى سريعة.. يتمتمون بأغنيات جذلى معرشة بالغار.. ضوء خافت على مضض يتقدم.. الأربعة فجأة يتحركون، أصوات مدافع غير مأمورة من الضفة الشرقية تحاول أن تفرش لهم طريق سلامة.. المدفعية بالمدفعية تقابل .. الكشافات تحيل الليل نهار أيتها السماء أمطري إن كنت تستطيعين ظلاما.. الأربعة داسوا على ترابهم بثبات ثم ناموا بين الرمال.. الضوء الخافت يتقدم بسرعة.. وهم يزحفون.

قائد الأربعة يتحرك.. يأمر رشاشاتكم وقنابلكم..

العصافير أيقظها ضوء الكشافات المباغت.. لكن العصافير كانت تغرد.. الضوء أيقظ العصافير من مهاجعها.. مـــن يفـــهم لغـــة العصافير؟! هل هي نشوى لكنه لم يجد تفسيرا لذلك.

أصوات رصاص ينطلق من فوق رؤوسهم وبالقرب من جنوبهم.. السماء تمطر نارا. لم لا تمطر طيرا أبـــابيل ترميـــهم بحجارة من سجيل.

قبضت يده على القنبلة وسحب فتيل الأمان وقذفها.. ثـــم ارتمى أرضا.. اصطدمت بالضوء الخافت انفجر مقهقها.. يا لها من لحظة.. مات الضوء الخافت..

أصوات الرشاشات تندلع معلنة موعد الرحيـــل.. إلـــى أين.. وهذه أرضه..

.. الرصاص بالرصاص يقابل.. عض على نواجـــذه.. الحياة لنا.. قذف بنفسه متواريا خلف صخرة.. الصخرة موقـــع يساوي الألوف في معركة.. اضربوا أيها الرفاق.. اليوم يومكم.

الأغنية الخضراء لم تردد.. انسحبوا بهدوء.. وعلى كتفه يحمل رفيقا.. الرفيقان الآخران استطاعا أن يزحفا رغم الجراح المثخنة.. وعلى النهر المصلوب ألقى نظرة.. أيها النـــهر بـــك سأدفن أيامي كي تطهر أن بقي لي أيام.

اجتياز النهر صعب.. وقسوته اكبر إن لم يكـــن هنـــاك

رفاق، ضوء خافت يلمع من بعيد.. صوت المدافع من الضفة الشرقية يعلن نبض الحياة.. ووجود الرفاق على الضفة الشرقية. الضوء الخافت يتقدم ببطء.. صوت انفجار ويهلك الضوء الخافت.

ابتسم. هي ألغامنا.. وفي اليوم الحادي والعشرين كان يستمع إلى أنشودة خضراء من أفواه الصبية في معسكر تدريب الأشبال، وابتسم وعاد سؤاله يلح ما قيمة اليوم الحادي والعشرين.. ألا أنه كان هذه المرة يعرف الجواب حيث اصبح تغريد العصافير أجمل وأناشيد الأطفال أنصع ثم أخذ يغني جزلا... لا يفكر في شيء.

تشرين أول - اكتوبر 1968

الثلج ينبت خنجرا

أدق في الأرض وتدا.. الريح عاتية.. النائمون يستيقظون.. يتسرب الماء إلى الأعماق.. الأجساد الطويلة تتململ..

ماذا أصنع لهم.؟ أحبائي فلتناموا.

يفتحون أعينهم نصف فتحة.. يغلقونها وينامون. يخيل إلى أن الأصوات التي فوق الخيمة.. كأنها وقع حوافر.. مهزومة.. كليلة لا بل نشطة تغذ الخطى.. فوقها فارس عتيق.

– ناموا يا أحبائي..!

ونشرت بطانيتها السوداء فوقهم.. تمددت تبحلق في عتمة الكيان المحصور بين (الشادر) والأوتاد والأعمدة..

– ها .. هل نمت يا أبا محمود.؟

أصمت.. لا أتكلم.. من أعماق صدري المثقل بسنوات حروب طويلة.. والمثقل بسجائر (الهيشى) التي أتقن لفها.. تخرج قحة، من صدري تخرج قحة..

– ها أنك مستيقظ.!!

* ....

– أبناء ابنك يموتون من البرد.؟!

*..................

ألوذ بالصمت.. القنابل تتساقط من كل ناحيــــة وزئــير صوت المدافع.. بم..بم..بم.. الأطفال يتكومون بجانبهم أبوهــم.. الطفل المدلل في حضن جده يغفو.. أداعبه أقبله لا تخف.. بعــد ساعات كانت الطلقات والمدافع بالنسبة للأطفال شيئــا عاديــا.. الأطفال يريدون أن يأكلوا.. أحاول أن اخرج.. ابني يمنعنــــي.. ويخرج ليحضر لأبنائه طعاما..

- الرصاص الطائش هنا وهناك.. لا نريد أكلا.. عد يا بني..

أقول لها المكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين.

أم الأطفال كانت تزور والدها العليل..

فجأة صرخ المدلل الصغير - أمي .. أمي.. أين أمي.؟

أحسست لحظتها بطعنات قاتلة تمزق صدري..

- قلت: ابعد عني ..

زوجتي نظرت إلي وتمتمت اسم الله عليــــك وبســملت وحوقلت..

جدي ما بك.؟

الصمت ارتمى بين أحضانه.. أحسست لحظتها أن ملثما يحمل خنجرا مدببا قد أمسك بعنقي وأخذ يذبحني..

الطفل يبكي.. وأنا أشاهد دمي المسفوح على يد الملثــــم

المجهول..

- غاب ابنك يا أبا محمود.!!

كل غائب وحجته معه.. وماذا لو تأخر.؟ لا بد أنه يتحين فرصة للعودة.. الماء يعسعس بين الأقدام الطرية.. شهر شباط يزور المدينة.. يدي تمسح قطرات ماء انحدرت من جبين السطح الواقي؟!

فتحت الشق.. أبص على علب الصفيح الكبيرة المتراصة أمامي.. الريح قوية وعيون السماء تدلق المياه.. صنابير السماء مفتوحة على آخرها..

* لا فائدة من اعتدال الجو..

- ألم تنم بعد يا أبا محمود؟!

* نمت بما فيه الكفاية.. نامي أنت.. أتبكين.. لماذا.؟

تبكي وتبكي.. وأنا أصيح في وجهها كفي.. لئلا يستيقظ الأطفال بلا أم ولا أب وتبكي وتبكي..

- السماء تبكي معنا يا أبا محمود..

أهز رأسي..

- أبا محمود السماء تبكي معنا أليس كذلك.؟

* اسكتي السماء لا تبكي مع أحد، ولا على أحد.. هي تراقب..

- السماء تبكي على محمود وزوجته يا أبا محمود..

* قلت لك اسكتي.. ليس لنا إلا الصبر..

- السماء تبكي من أجل الأطفال اليتامى..

* الأطفال اليتامى لهم الله.

حينما حملت محمودا على كتفي وسرت لأواري جسده التراب، لم يكن يخطر في بالي لحظة أن هاتين الكتفين سوف تحملان جثة محمودا.. مع غيره مات.. بكينا وبسرعة خلفت دموعي .. مرت الأيام.. والمدافع تزأر والناس قد اعتادوا هذا النوع الغريب من قرع طبول الحزن.. وأصبحت علامات الحزن تغمر كل الوجوه.

من مات.؟ سؤال لا قيمة له، حينما يصبح السؤال الأهم من عاش.؟

- مات أبو فلان، وفلانة يا أبا محمود.. سجنوا ألوفا وألوفا..

- لا تخافي لن يأخذوا الشيوخ.

وأخذوا مؤذن الجامع، واخذوا عجوزا لا يسمع، أوسعوه ضربا لأنه لم يرد عليهم.. (لموا) حتى سعد (الأهبل) من الحارة..

ألم اقل لك يا أم محمود انهم لن يأخذوا الشيوخ، ها انهم

قد تركوني.. لكن الأرض ما زالت تغلي.. أيام تصحو.. وأيام تفور.. البرد يشتد والأطفال يحتاجون إلى غذاء وكساء.

يأكل الأطفال.. لايعرفون من أين تأتي اللقمة وكيف.؟! لكنهم يأكلون.. الصغير سأل أباه حينما خرج هل ستحضر لي كلاشنكوف.؟

أبوه ابتسم وقبله، لم يكن يدرك أنها قبلة الوداع.

الأطفال يتساءلون هل أبوهم قرر ألا يعود.؟! وهل يحمل كلاشنكوفا.؟!

يتشاجرون فيما بينهم.. يوزعون أسلحة على أنفسهم.. كل منهم له لعبته واسمه الحركي.. أبو علي.. وأبو نضال.. والوحش.

- الجو يا أبا محمود به تباشير ثلجية.

أغمغم.. ثلج وخيمة.. حينما خرجنا في النزوح الأول أثلجت الدنيا.. وقلنا يومها- تذكرين ذلك- انه غضب، وحينما نزحنا عام 1967 في المرة الثانية أثلجت أيضا. خيامنا انزلقت من مواقعها.. قلنا هو غضب.. واليوم.. ماذا نقول.. أغضب أيضا.؟

* اسمعي لو استمر البرد قليلا سيكون وسادة ملائمة لاضطجاع الثلج..

- ألن تنم يا أبا محمود.؟

*هذا الصوت اللعين الذي يجبرني على الاستماع إليه لا يتركني أخلد للنوم.. قد تقولين إني مجنون..

- بعد الشر عنك.

* حقا أقول لك قد تظنينني مجنونا..

- قل لا تخشى شيئا..

* هل صحيح أن محمود وزوجته قد ماتا.؟

- ....

* لم لا تردين.. أني لا أصدق.؟

- ....

* تلتزمين الصمت.. قلت لك قد تظنينني مجنونا.

وانخرطت في البكاء.

أستمع إلى تنفس الأطفال وزفراتهم، وكأنها تنبع من أعماقي.

لا تبكي لئلا توقظي الأطفال.

تناولت جرعة ماء شربتها من إناء فخاري في ركن الخيمة.

حاولت أن أستسلم للنعاس.. طاردتني صور شتى ماذا لو مت وخلفي هؤلاء الصبية..؟! طردت الفكرة من ذهني لكنها عادت إلي بالحاح.. لست ادري لعل حوادث السماء لها تأثيرها

على.. رصاصات دوت..

ماذا حصل.؟

توت.. توت.. أبواق السيارات تنفخ.. وفحيـــــح النـــاس يتعالى وهم يتراكضون.. طلقات رصاص تـــــدوي.. رصـــاص هناك.. المحلات تقفل أبوابها، والكــل يحــاول أن يجـد مكانـــا يختبيء فيه من رصاص غبي يتقاذف من كل جانب. سقط فتـــى بجانبي.. وحملوا امرأه حملوها إلى المستشفى..

- تأخرت وأقلقتنا يا أبا محمود.

* احمدي الله على السلامة يا أم محمود..

كان من الممكن أن أموت فطيسا في سوق المدينة.. وها هي فكرة الموت تعود إلي بإلحاح.

منطقتنا مهددة بهجوم.. هكذا سرت الإشاعة منذ أسبوع وقال البعض إن قصفا مدفعيا سوف يصيبها..

أم محمود طلبت أن نلجأ إلى منطقة أخرى مـــن اجـل الأولاد.. ومن أجلهم قلت لها ألن نتحرك .. لن نترك موقعا نحن فيه أبدا..

العائلات التي غادرت المنطقة عادت مـــرة أخــرى... كانت كذبا تلك الإشاعة إلا أن جو الاضطراب والقلق يســـودان المدينة وحواليها.. بين السلطة والمقاومة الثقة غــير متوفــرة..

والوجدان باتا نقيضين.. أصبحت القضية فدائـــي، أو لا فدائـــي، وبالنسبة للفدائي أقول لأم محمود- ليس من طريق لحريتـــه إلا بتحرير إرادته.

فكرة الموت طاردتني وطاردتها.. حتى غلبني النعاس.. وغلب زوجتي أيضا.. حتى أننا لم نستيقظ لصلاة الفجر.

في الصباح أطل الأطفال من الشق.. هللوا وفرحـــوا.. الثلج.. الثلج كرات الثلج تتدحرج.. يتسابقون.. كرة ثلجية ضخمة يصنعون منها تمثالا كبيرا.. لرجل مسلح.. الطفل يقـــول هـــوذا الفدائي.

الثلج الأبيض يغطي الأرض.. تنادي علـــى الأطفـــال.. ادخلوا من البرد يلهون ويضحكون.. دخلوا ليأكلوا..

صوت طلقات نارية تأتي.. النار مـــن فـــوق الـــرؤوس وكأنها تحاول إذابة الثلج.. الأطفال ينظرون إلـــي.. ليـــس فـــي نظراتهم خوف ولا فزع. يبتهجون لصوت الرصاص ماذا يعني لهم.. لعبة مسلية.. لكنهم تربوا على صوتـــه، وعلـــى معانقـــة السلاح نشأوا.. عند جارنا ذهبنا. تكومنا في ملجأ حفره وأبنـــاؤه كالفسيخ في برميله الخشبي.. بين الفسيخ أدخن اخنقهم، وليـــس بيدي غير ذلك.

الرصاص صوته يبتعد.. لكن أصوات نساء تصـــرخ..

وتولول.. تترامى إلى أسماعنا امرأة تنادي يا ويلكم زوجي.. هو أبو العيال ومن لهم بعده؟!

أصوات النساء يولولن. النساء يولولن..

يصلنا الجنود.. فينـــادون اخرجــوا.. أيـــها الرجـــال.. اخرجوا.. وشتموا أيها الرجـــال فـــي زي النســـاء اخرجـــوا.. وخرجنا.

شيبا كنا.. ثم أطفالا.. أخرجوهم أول الأمر ثـــم تركـــوا بعضهم في عربات نقل عسكرية شحنونـــا.. وبمعســـكر فســـيح الأطراف تركونا.. نفترش الأرض بغطائها الأبيض الناصع.

الأوصال تتجمد.. الدورة الدموية يختل توازنها.. أحرك أصابعي افتح قبضة يدي ثم أقفلها.. أفرك يدي..؟!

العراء والثلج.. والبرد والجوع.. والشيخوخة.. هي أنا، ومثلي هنا كثيرون.

وصرخت في وجوههم:

* ألا تعرفون الرحمة تتركونا في البرد بين الثلج..

اخرس...

ويفرقع بسوط في يده.

* ارحموا شيخوختنا وأطفالنا..

- ارحموا.. ارحموا..

وتعلو ضحكات جندي لا يعرف حتى ما اسمه.. وانهال علي ضربا بالسوط.. ثم ركلا بالحذاء.

لم أدر ماذا جرى لي بعد أن هجم على ذلك الجندي..

كنت قد عانقت الثلج ورحت في نومة لا أدري طولها.. وكان شريط بني يلتصق في جانب فمي ويمتد إلى ذقني.

وتداعت إلى ذهني صور الأطفال.. ابني وزوجتــــه، أم محمود شبح الموت يعود ثانية يدوس هامتي..

يا أم محمود بكاء السماء يبذر في الأرض ثلجا.. والثلج ينبت خنجرا.. فنفضت عن لحيتي الثلج.. وكانت قدماي قد جمدتا فلم أقو على تحريكهما..

آذار – مارس 1971

دائرة الضوء وحمام الميلاد الأول

1- دائرة الضوء.

مرت فراشات هائمة، وتراقصت حول ذبالـــة الســـراج. ودت لو تعانق خطوط النور المنسابة ببخل شديد من تلك الذبالة.

لم تكد تقترب من منطقة الضوء الباهت، حتى تحركـــت في مكامني مشاعر غريبة.. لو أستطيع أن امســـــك الفراشـــات تلك.. وأعتصرهن فأمزج عصيرهن مع (الجاز) ليمنحني نـــورا هائما مثلهن.

مددت يدي وأخفضت قليلا من ذبالة السراج، فتراجعت الفراشات مذعورات من ذلك المتجنى على النور السحري الذي اجتذبهن.. ضقت ذرعا بدوران الفراشات حول الذبالة.

اعتبرت ذلك تحديا سافرا غير ملائـــم.. حيـــث افســـد وجودهن بحيرة عميقة هادئة بموجات صاخبة من الدوران غير الهادف.

ملت قليلا نحو السراج ونفخت.. ثم انطفأ السراج..

قلت لنفسي ماذا ستصنع الفراشـــات الآن.؟ ظـــلام فـــي ظلام.. وانقلبت البحيرة العميقة الهادئة إلى بحيرة سوداء آســـنة فيها طحالب مكونة من الفراشات وصراخـــها الغـــاضب كأنـــه

مظاهرة احتجاج..

كان لا بد لي أن أعيش لو للحظات، في بحيرة الصمت، لكنني انسللت بعيدا بعيدا نحو آمال معلقة خلف شريط اخضر من أمان عذاب عاشها شعب بأكمله.

وشعرت أن لا بد لي من أن أصنع شيئا مهما كان تافها..

تمتمت.. جيفارا يا أسطورة النضال.؟ لكن ما شأني وجيفارا.؟

لست أدري كيف تجمعت أصابع يدي وتقلصت فجأة.. ثم تشكلت لتكون قبضة قاسية وأحسست أن بإمكاني أن أصنع من شعبي نارا لاهبة.. لا تذر حتى الأخضر.. والإنسان حين يأمل يحاول أن يستجمع طاقاته.. بدون جدوى.. حينما أدركت أي ظلمة تسبح فيها غرفتي ارتددت إلى واقعي.. بعيدا عن جيفارا.. وشعبي.. لكني لست ادري أي واقع ذاك.. أنا في غرفتي الحقيرة.. غرفة لاجيء أعيش كغيري من الشباب على أمل واحد.

لم تكن غرفتي فيها شيء سوى الظلام.. أما الأثاث فمعذرة لأنني لا أستطيع أن أحصيه وأعيش مع قليل من الفئران والصراصير.. والفراشات تأتي لزيارتي بعض الأوقات.. لعلها

تشعر بوحدتي فتأتي لمؤانستي.. لكني أحاول أن أفهم سر دوران الفراشات.. حول الضوء.

في الحقيقة إن الضوء ساحر جميل ورائع.. أنا أهوى الضوء لكني لا أرغب في أن أدور حوله إني افضل أن أموت في الظلام على أن أدور حول الضوء لو دورة واحدة.. وبي رغبة شديدة في أن أموت في اللحظة التي أخترق فيها مجال الضوء.. بل هي أمنية.

غرفتي مظلمة تحوطها رعاية قدسية لا تعرف الرحمة أو القسوة.. رعاية بلا عواطف، ولعل ما يفسد هذه الحقيقة وصية أبي قبل موته برصاص الصهاينة.. أنت يا بني ابن عالمك الذي أكل التفاح في الجنة اصبر يا بني على لقم الشوك.. إلى أن تحمل فأسا لتقتلعه. بكيت كثيرا يا والدي.. علني أغسل عاري وضعفي أو عار هزيمتي.. حاولت كثيرا أن أقبض على الريح أو أن أصارع طواحين الهواء.. ووجدت انه لا بد قبل كل شيء أن أخترق دائرة الضوء.. غرفتي مظلمة لا شيء يضيئها.. كاذب من يقول إنها من غير جيفارا أو الشعب أو الفأس يمكن أن تضاء.

بحيرة الصمت الساكنة تشهد على ظلمة غرفتي.. وعلى ذلك الشوك الذهبي الذي آكله كل يوم واجتره كل مساء.. اسألوها

قد تقول لكم عن أشياء كثيرة.. قد تبوح لكم بأسراري.. عن حبي عن آمالي.. عن بكائي.. عن أحلامي.. ستقول لكـم أي غرفـة مظلمة هي.؟ كإظلام العالم بلا قمر.

وأنتن أيتها الفراشات قد أكون مخطئا في حقكن، إلا أنني أريد أن نخترق حلقات الضوء سويا في سيرنا الطويل.

واستجمعت قبضتي مرة أخرى، ولم أدر لماذا ضربـت السراج وحطمته.؟!

وعادت الفراشات إلى الأزيز، وتمددت علـى فراشـي بخيال شارد غير واع أو مركز وداعبني حلم أنني جيفارا أحمل فأسا مع قوم كثيرين استطعت بهم أن أحوز القمر وأغوص فـي دائرة ضوء ممتدة الكيان إلى ما لا نهاية.

2- عام الميلاد الأول.

حدثتكم عن حجرتي.. فيها سراج وفراشات.. نسيت أن أقول لكم إن حجرتي مقفلة إنني ما زلت أتحدث منها.

- من أنت؟! سؤال بصوت عميق..

* أنا..!!

- نعم. من أنت؟..

سؤال غريب.. كيف يجرؤ أحد على سؤالي من أنـا.؟

وفوق السحاب تجد هامتي منتصبة.. إلا أن السؤال كان قاسيا..

لم أستطع حينها أن أتمالك نفسي، ودرت حول ذاتي كما أظن أكثر من دورة كاملة.. وترنحت من هول صدمة السؤال.. فارتطم رأسي بشيء صلب.. جدار.. ثم جدار.. وجدار آخر.. ثم جدار رابع.

كم من الصدمات التي أصابت رأسي.. واثبت كفي على رأسي كي أقفل الجراح.. كانت كثيرة.. وددت لو أمسك المنديل كي أجفف ذلك السائل الساخن المنساب من رأسي رائحته كرائحة زهر الليمون.. ولونه لم يكن أرجوانيا قانيا.. بل كان برتقاليا.

حاولت أن أقاوم شدة اللطمات التي واجهتني.. إلا أن السؤال واجهني مرة أخرى:

- من أنت.؟

لم أكد أتم كلمة أنا، حتى هويت مرة أخرى.. ظلي يعانق الأرض.. قدماي غاصتا في أرض الغرفة.. كلما حاولت أن استجمع قواي.. أو أسحب نفسي تجدني غائصا في لجة عميقة بلا قرار.. قدماي غاصتا في طين اسود يداي التصقتا بجسدي.. أصبحت كالجنين.. ظلت رأسي هي الوحيدة من بقايا جسدي تحاول المقاومة، ثم رفعت من مستوى نظري قليلا، علني أبصر أي شيء.. أول الأمر ظلت عيناي لا تبصران سوى جدران

غرفتي العتيقة.. ماذا لو اجتازت عيناي بأبصارهما حدود الإمكان.. لكن لي عينين بشريتين لن تتخطيا الجدران، آه لو أغسل عيني من مياه البحر الميت.. لو أغوص في قاع البحر الميت حيث لا يرجس مياهه كائن حي.. علني اطهر نفسي.. أو أحمل زجاجة أستطيع فيها أن اغسل جدران غرفتي..!

وضحكت من نفسي.. أنا لا أكاد أعوم.. فكيف أغوص.. لكن صوتا ينادي..

- يا ... تقدم..

ابتسمت لم أعد أشعر بالغربة هناك من يعرفني.. الباب والنوافذ كلها ابتسمت، جدران غرفتي صارت من زجاج.. واكتسبت عيناي أبعاد رؤيا ناصعة.. من نظف الجدران.؟ هل طغت مياه البحر الميت.؟ هل علت أمواجه.؟ هل فاض نهر الأردن.؟

أخذت في سحب نفسي من اللجة العميقة في أرض غرفتي.. لكني لم أقو على الاحتمال.

- أرض غير أرضك لا تقوى على حملك.؟

تصبب العرق من جبيني.. بعد لحظات قليلة كان جسدي باردا.. وشعرت ببرودة رام الله في شهر كانون.. أغرقني العرق.. كان حماما مطهرا.. نزعت ملابسي وأخذت البرودة

تتسلل عبر أطراف أصابعي وتعيد إلى حيوية فائقة..

لكن الصوت عاد ثانية يناديني باسمي.

- أنت يا ..

اجتاحني إحساس عميق بالسعادة.. أنا فلان.. يا لسعادة الإنسان حين يشعر بوجوده.. إبتسمت ابتسامة نشوى بالأمل.. كان لي رغبة قويه في الخروج.. لأقبل ذلك الهاتف أو أن أصافحه.. كنت عاريا مع ذلك لم اشعر بأدنى خجل.. ماتت في نفسي كوامن الخجل.

بعد قليل استحالت الجدران كلها إلى جدران زجاجية.. انقطع الهاتف بحثت عنه.. أريد أن اسمع صوتك.. مسحت عيني علني أرى من كان يدعوني.

أدركت عريي.. لم أجد شيئا يستر جسدي.. أنا بين جدران أربع زجاجية مقفلة كل من حولي يتفرجون علي.. يسألون من هذا.؟ من هذا.؟

اقتربت من الباب الزجاجي، حاولت فتحه.. لم استطع. حاولت كسره.. لم اقو عليه.

صاح صوت من بعيد:.. من ذا الذي يريد تحطيم الباب.؟

هل أجيبه.. بقيت مدة مترددا..

الصوت صرخ.. دونك الباب لكنه يفتح بميعاد.

ارضي يدعونها أرض الميعاد.. ونحن ماذا ندعوها..؟

إنني لا أكاد أضع قدمي على أرض الغرفة حتى تتوهان في لجة بعيدة بحثا عن أرض صلبة تحتملها..

استطعت أن ألم أطراف ملابسي.. وارتديتها.. كانت الجدران الأربعة الزجاجية.. لأنني في تحديها السافر لي.. لم اقو على اختراقها..

وكم يشعر بمرارة عظمى إنسان تحرمه من شيء وهو في متناول يده.

أنا في غرفتي الزجاجية أرقب كل شيء.. وأرى كل شيء ولكنها غرفة مقفلة.

أبونا آدم تناول التفاحة من زمن ترك الجنة، حيث لم يطق الحرمان.. أما أنا فماذا اصنع.. خطر في ذهني أن أحطم جدران الغرفة الزجاجية واجتازها إلى ما بعد الحدود.

أشرقت الشمس.. ثم زالت بقايا الغشاوة عن عيني.. استطعت أن أميز أشياء كثيرة.. جيراني كلهم مثلي في غرف زجاجية.

صرخ أحدهم: أنت يا..... هل سألك أحد من أنت.؟

قلت له: نعم..

قال: سألني أنا أيضا.

ران الصمت.. مشاعري هدأت.. وغمرني هدوء نسبي فالإنسان يستريح إذا ما شاركه أي إنسان واقعه..

استغرقت بعد ذلك في تفكير انحصر باتجاه واحد.. من أنت.؟ لماذا مثل هذا السؤال.. أنا لا أجهل هويتي.. ولا أجهل ذاتي.. لكنه شيء قاس أن تكون مجهولا.. ثم جاء صوت آخر من بعيد:- أنت يا.. هل سألك أحد من أنت.؟

قلت.. نعم.. وأنت.؟

قال وأنا كذلك.؟

لقد صدمت من المفاجأة لأنه يعرفني كما أعرفك..

ظننت أنني سأتخلص من مشاعري الغريبة بسرعة..

أحس بضيق يعتصر ذاتي ويحيلها إلى عصارة آلام.. يقتلها.. ثم يحييها.. ثم يقتلها لكني لا أقوى على تطهير آلامي.. فالحصار محكم.. والعيون تراقب والغرفة مقفلة. والسؤال من أنت.؟ لا زالت طعناته مميتة.. من أنا.؟

هل هناك من يجهلني..؟ أرى نفسي في غرفة مقفلة بين جدران أربعة لا تعرف سوى الصمت.. لو تكلمت ستكون أحرفها سخرية.. وبسمتها استهزاء من هذا السجين.. سألت نفسي.. من أنا.؟ فلأفرض وجودي ولأقل لهم من أنا.؟

المستحيل أن أبقى سجينا في غرفة زجاجيـــة مقفلــة.. ضحكت جدران الغرفة ثم تعالت ضحكاتها صـــارت قهقـــهات.. أقفلت أذني.. الغرفة تتحداني لكن لن أظـــل فـــي هـــذا الكيـــان المحصور مهما كان الثمن.

ما الحل.؟ حطم جدران الغرفة.

- إنها زجاجية..

- وماذا لو أدميت يديك. حطم الجدار. وتقول حينئذ أنـــا فلان بأعلى صوتك.. ستجد مئات ومئات الآلاف مثلك يصنعون .. لن يجرؤ أحد على سؤالك من أنت.؟

كان لا بد أن افعل شيئا مهما كلف الثمن.. من أنا.؟ من أنا.؟ اقتربت من الجدار الزجاجي.؟ ثم لمسته ونظـــرت إلـــى كفي كانا طريين ثم أعدت مرة أخرى لمس الزجاج..

تراجعت قليلا.. دوى صوت من بعيد من أنت.؟

لم أشعر إلا بقبضتي تجتمعان ثم تحطمان الجدار الزجـــاجي.. كـــان الـــدم ينزف بغزارة وضياء الشمس تغرق الغرفة.. شعرت بالدم طهرا لأعمـــاقي وكأن هذا الدم المنزوف إنما هو مياه حمـــام الميـــلاد الأول.. وابتســـمت الشمس وهي تصنع لي دائرة ضوء.. لتعانق حمام الميلاد الأول.

آب - اغسطس 1967

(إلى صديقي الشاعر محمد عز الدين لمناصره الذي ذاب حبا في أرض فلسطين.
وغنـــى لجـــارته الصبية ذات العيون الزرقاء في قصيدته "كنيسة القيامة".)

اللقيا محرمة

اللقيا بعد عام- عام يا مدينتي أو اكثر.. ثم نزرع الأحلام، نقلــع الأحلام، تموت في نفوسنا نشوة حمقاء.. ويعود إلـــى الشـــوارع المختنقة غيظا بعض البهاء.. مر عام واقـــترب عـــام.. كـــانت (عيوني) لا تعرف لون السماء.. الشمس تحرق لـــون الســـماء، وتطفيء نور العيون.. وحبيبتي من نافذة تظل تغني للصبـــاح.. اللقيا بعد عام.

يا حبيبتي زرعنا منذ ميلادنا نغمات الحـــب فـــي قلـــب فخاري.. كنت جارتنا.. ذقنا طعم الحصرم المســـروق بلـــذة !.. عانقنا عرائسنا.. لعبنا.. كنت عريسا وأنـــت عروســـة.. غنينـــا لبعضنا البعض، قلت أنه كان لي جارة حبيبة، عيونها زرقاء مثل مريم العذراء، وشعرها جدائل مطوية تسكن في مدينـــة الريـــاح والهوى مدينة أرادها الإله أن تكون موصدة الأبواب والكوى.

والأيام حينما تمر.. لا تكل ولا تعرف الملل.. تهمس، أو تغني، أو تتكلم، وفي بعض الأحيان تصرخ. وحينما نصرخ لها بأن قفي..!! تهز منكبيها مبتسمة وتسير.. لا زلت أذكـــــر أيـــام طفولتنا في مدينتنا المقدسة... الأسوار تحكي تاريخـــا.. أزقتـــها التي طرقناها مرارا تتكلم عن خطى أقدامنا.. وفـــــي منحنيـــات شوارعها ما بين باب العامود وحارة اليهود كنا نلتقي خلف زقاق مهجور.. أهمس في أذن جارتنا.. أحبك.. تضحك.. تظـــــل ذات العيون الزرقاء تضحك.. وتقول بخفر وهمس وأنا احب.. بـــــك ونفترق.

اثنا عشر عاما ليس لها معنى سوى البراءة، لكن كلماتنا تلك ولقاءاتنا في ذلك الزقاق ظلت تكبر.. الإثنـــا عشـــر عامـــا أصبحت ثمانية عشر عاما، وجارتنا ذات العيون الزرقاء، ظلت تكبر.. وكبرت كلمة الحب ولم أعد أستطيع أن أقول لها أحبك.

جارتنا الحسناء تهواني هكـــذا تكلمـــت العيـــون، وأنـــا أهواها.. اعبدها.. يا جارتنا سنلتقي.. الجار يراقـــب، الحجـــارة تتلصص، الشارع يمتد بغباء، لكنه يرى. حتـــى الشمـــس مـــن عليائها تنظر.. رغم ذلك أهمس، يا جارتنا إني أحبك، كتبت إليها رسالة ملتهبة. قلت لها إني لا يغمض لي جفن.. وحينمـــا أغفـــو أحلم بك..

كتبت : إني أعبدك يا جارتي.. لكـــن جارتنـــا أعـــادت رسالتي وطبعت قبله عليها بأحمر الشفـــاه، احتفظــت بالرســـالة وقلت لأنها ما زالت عند عهدها فسأموت من أجلها.

* * *

والمطر في مدينتنا يتساقط .. لا يعرف النعومة ينزل في أحيان كثيرة بعصبية ليس لها نظير رذاذ ثم وابـــل المطـــر ثـــم البرد.. وقد تتساقط الثلوج.. صحيح أن الجو يكون لطيفا والمطر ينهمر.. لكن الشيء الألطف لو تساقطت الثلوج حيـــث ســـينال الطلاب إجازة رائعة.. كل الطلبـــة بحكـــم العـــادة يعلمـــون أن المدارس ستقفل يوم الثلج، ولكن الطالبات سيذهبن إلى المدارس، ليتحررن من يوم بيتي مقيت، والطلاب يسعدون بهذا اليوم حيث سيلهون بقذف الطالبات بالكرات الثلجية.. آه لو أثلجت.. سأراك حبيبتي وأقذفك بكرة ثلجية فتثورين ثم تضحكين.. ونلعـــب بـــلا تكلف أو مسئولية.

وجهك غض نضير.. أريد أن أراك.. وتهمســـــين لـــي لقاؤنا غدا. تهللت أساريري وكشفت عن غبائي.. لم أتذكر سبت النور..

كنيسة القيامة في ركن جنوبي من بيت المقدس تقبـــع..

وبيتنا على بعد خطوات من كنيسة القيامة.. وفي الساعة الثانية عشرة تطفيء الأنوار..

وتفنى في لجة الظلام شفاه، وتضيع أنوف، وفي الغالب أن لا يجد الأب ابنه أو ابنته إذا بلغا من العمر ستة عشر عاما أو اكثر. والشموع تزيد من سرعة انصهارها قبل الساعة الثانية عشر تغسل نفسها.. فهذه ليلة التطهير.

موعدنا غدا كنيسة القيامة.. تجمعنا الآلام والأحزان والندامة، صفصافها يلوح مطرقا مطأطئا حزينا.. تلح في صدورنا حمائم الأشواق، وأمسكت بذلتي الوحيدة أفحصها بقعة هنا.. يا أمي و .. و ..

ماذا قالت أمي.!

- أين القميص.؟

- القميص في يدك يا بني..

لم أدر لماذا، كنت شارد الفكر.

- خذ قميص أخيك يا بني.. سيحضر اليوم ليحتفل معنا بسبت النور.

أخي جندي رقيق طيب.. حينما يحضر.. يجلب لي معه سجائر من الجيش.. أنا أدخن لا يعلم أبي هذا وأمي تعرف إذ تجد بعض بقايا التبغ في جيبي، وتشاهد الدخان في غرفتي

المقفلة أحيانا.. تعاتبني.. سأقول لأبيك ولا تقول.

أخي دائما شارد الفكر.. لا يهمس ولا يبتسم معي إلا ليقول لي أريد أن أراك رجلا أعتز بك، سأعلمك دكتورا.. ستكون احسن أولاد الحارة.. وسترفع رأسنا عاليا.. لم يبق لنا يا أخي شيء سوى التعليم.

وحينما يقول لي ذلك يسرح خيالي بعيدا، دكتور وزوجة جميلة عيونها زرقاء.. أقول لأخي هل أحببت.؟ ويتنهد ثم يصمت.

أقول له: الحب عيب في مجتمعنا أليس كذلك.؟ يجيب أخي نعم.. أعاود سؤاله هل أحببت.؟

وهز رأسه بالإيجاب.. فقلت له أني أحب، فابتسم بسمة عريضة.

* * *

غدا سبت النور.. ستمر الدروس ببطء لا يطاق..

اليوم سبت النور.. المدرس يشرح الرياضيات لذيذة لكن عقلي مقفل ويصرخ المدرس في وجهي ما بك.؟ آه عيناها الزرقاوان تطارداني.. يأمرني المدرس بالانتباه.

تمر الحصة الثانية.. ثم الثالثة.. قصيدة حب جميلة.. أبو القاسم الشابي شاعر رقيق يحيل الطبيعة إلى جمال هادىء

عميق، ويحيل الحب إلى أغنية ساحرة أخاذة مقدسة.

وتحدث مدرس التاريخ.. عن السياسة.. درسنا المفضل كيف نعود.؟

بل ويتعدى ذلك إلى اتهامنا بأننا شباب تافة صيع.. جيل ملعون عديم القيم لا يعرف شيئا سوى مطاردة الفتيات.. والسينما.. أما جيله لقد كان يحمل السلاح وهو أصغر من سننا بكثير.. الطلاب لا يطيقون الإهانة.. لكنهم يصمتون.. السياسة شيء مقدس.. يثرثرون فيما بينهم.. أما هنا فليس غريبا أن يكون المدرس أو أحد زملائهم من رجال المباحث.. فيلوذون بالصمت.

أيها المدرس نحن صيع.. وأنعدمت اليوم في روحي حرارة اللقاء.. لحبيبتي.

اليوم سبت النور.. نحن صيع.. الحب حرام.. ألم تحب.. نحن لم نخلق الحب في قلوبنا، لقد ولدنا ووجدناه مخلوقا.. أعطنا سلاحا سنحمله. سنموت بلا قيمة إذا شئت ذلك.. الموت ليس له ثمن في نظرنا.. أخي جندي يعيش في معسكرات مريحة ويدخن سجائر فاخرة ويتشوق لضغط الزناد برصاص حقيقي..

أنا احترم مدرسي دوما.. لكنه أثارني.. حتي بيني وبين نفسي احب أن أحترم أي إنسان مهما كان رأيه ومهما كان موقفه مني.

وضاع في نفسي الشوق للقياها.. لن أذهب لسبت النور.. الصلاة بلا قيمة.. العدو على بعد خطوات.. أكتافنا لـــم تحمـل سلاحا.. اللقيا بلا جدوى.. أصابعنا لم تضغط على زناد بندقية.. وجودنا بلا معنى.. حبنا عبث.. هذا ما يجب أن تقوله.. لنحترق صمتا..

عدت إلى البيت كان صوتي عاليا.. تناول غــــذاءك يــا بني.. لا أريد.. ماذا قلنا لك أيها المدرس.. لم نذنب.. لم نســتلم مسئوليات.. اقفل النافذة قالت أمي.

وتحركت ببطء وتثاقل.. فكري شارد.. ولمحت جارتنا.. يا جارتنا مدرسنا يخلط بين الحـــب والسياســـة بيـــن الواجــب والعواطف.. مدرسنا لا يريدني أن أحب..

ابتسمت ذات العينين الزرقاوين.. ابتسمت..

الله يلعنك أيها المدرس..

موعدنا الليلة في كنسية القيامة.. ليلة التطهير.. وأخذت أعد الثواني عدا..

يا أماه ألن تذهبوا للصلاة.؟

تحركنا.. الأجراس تقــرع.. أجــراس كنيســة القيامـــة

وأجراس كنيسة سيدتنا مريم تصلي من بعيد.. الأجراس تـــهدي تحياتها بعضها البعض الآخر.. وكل الأصوات تتعانق.

أماه ألا تســـــمعين.؟ إن الأجــراس تتعــانق.. ودقــت الأجراس.. ودخلنا الكنيسة.. الشباب والشابات وســـط الزحـــام ضاعوا.. والتقيت عيونها الزرقاء، وانطفأت أنوار قبة القيامة ما بين لذة العراك والفناء، وقال شيخنا وكان غارقا يطهر الصبايـــا مثلنا.. النور في كنيسة القيامة مطهر الخطايا.. وصية من الإله في سبت النور.

اطفأوا الأنوار عيشوا بأنوار روحكم، أضيئوا نفوســـــكم للحظة فضحكت وأصبح الصباح.. سعيدة ليلتنا.. قالت جارتنـــا ذات العيون الزرقاء.. سعيدة ليلتنا.. وبعد عامك الطويل نلتقـــي على الضفاف لا حور في خليجنا ولا مغبة تخاف.. ومرت أيـــام طويلة، وجاء صيف خطر الأنياب أغلق باب الإثم والرحمة في وجوهنا.. كنت قد سافرت بعيدا..

وفي العام القادم لم نعد نلتقي في ليلة سبت النور.. حيث كان ممنوعا مجرد اللقاء.. كانت الأسلاك والمدافع ذات النجمـــة السداسية تقول مجرد اللقيا محرمة.. محرمة.

شباط – فبراير 1968

ولكن عليا في واد آخر

أقبلت فاطمة نحوي تودعني. شدت على يـــدي طبعــت على جبينها قبلة، طأطأت رأسها ثم قالت لي: لا تغب عنــي يــا حبيبي..

*　　*　　*

وبينما أمي تصر لي صرة خبز ســاخن شــهي. قــالت ببساطتها الحبيبة إلى قلبي..

– يا علي(لفيت لك الخـــبز علشــان يوصــل ســخن لأصحابك).

وقبلتني.. وخرجت ومعي الصرة وفيها هدية ثمينة زوج حمام للأصحاب في القاعدة.

وقالت أمي: سيكبر زوجا حمام تأخذهمــــا معــك فـــي المشوار القادم.

*　　*　　*

كنت أتحرك بين مجموعة من الرفاق خمسة أشخـــاص ومعنا آمرنا.. وحينما اجتزنا النهر كانت أنفاس الأرض تتحــرك وتعانقنا.. هذه أول عملية اشترك فيها منذ أول أيلول.

العملية في حد ذاتها لا تستغرق اكثر من خمس دقائق..

لم يكن تنفيذها صعبــا بقــدر صعوبة الاستطلاع أو العودة

من تنفيذها.. وحينما تصبح في حالة ترقب طعنة في الظهر تصبح المعركة قاسية.

على ضفاف النهر ونحن في طريق عودتنا إلى أحراش (برما) في منطقة (جرش) كنا نسمع صوت مدفعية.. قلوبنا قفزت هل يمكن أن يحدث هذا.. منذ أحداث أيلول الرهيبة في عمان.. ومجازر الزرقاء واربد.. ركزت قوات المقاومة قواعدها في ثلاث مناطق رئيسية منطقة عجلون.. والغور وأهمها أحراش جرش التي تضم آلاف المقاتلين ومن ضمنها مجموعتنا..

إستنفاراتنا دائمة.. تحرش قوات السلطة مستمر.. بل أن زمام السلطة قد أفلت من السلطة. لم يعد لضباط جيش أيلول من أهمية لدى الجنود سوى أن يؤدوا لهم التحية العسكرية، فالأوامر بالنسبة لهم كما عبئوا وشحنوا هي طلقة في رأس فدائي قد يكون الفدائي أخاه أو ابن عمه أو صديقه، ذلك أمر لم يعد له قيمة حيث يلتقي الجهل والإقليمية.

عشنا لحظات توتر دائم.. ودفاع عن النفس فالغدر متوقع في أي لحظة.. عملياتنا في البدء أوقفت تماما، ثم شحت، حيث لم يعد اجتياز النهر مغامرة واحدة بل مغامرتين. ليس على ضفة واحدة من النهر بل على ضفتين.

وكلما دنت خطواتنا مترا أثناء عودتنا.. تحركت

مشاعرنا نحو الأحراش.. نحو رفاقنا هناك.. فالمؤامرة مستمرة وها هي دلائلها.

وبدأنا نميز صوت قذائف الـــر–بـــي–جـــي (10) و (7) وأصوات الدوشكا والدريكتريوف والكلاشنكوف وهي تتقاطع في تصميم مع أصـــوات رشاشـــات (30.00) والبنـــادق البلجيكيـــة والأوتوماتيكية الأميركية.. ويعـــود صـــوت المدفعيـــة وأزيـــز الطائرات ليحجب عن آذاننا كل صوت.

ورغم الإجهاد الذي حل بنا نتيجة العملية التي قمنا بـــها إلا أن النشاط دب في أجسادنا المرهقة، حيث أصبحـــت قضيـــة الحياة والموت أمام أعيننا، ليس بالنسبة لمجموعتنا فحسب، ولكن لقضية حملنا من اجلها السلاح ولن نسقطه.

ومن خلال تجاربنا، أدركنا مدى كثافـــة النـــيران التـــي تحاصر الأحراش حصارا محكما يفرضه الجيش في عملية إبادة تامة لعناصر المقاومة.

استطعنا أن نخترق الحصار من خلال الأشجار الكثيفـــة والصخور المتشعبة ووصلنا إلى رفاقنا.

كانت المعركـــة رهيبـــة.. قصـــف المدفعيـــة المركـــز والمتواصل والدبابات لا تستطيع الحركة لكن مدفعيتها تمـــارس دورها بشراسة وباءت محاولات الجنود التقدم تحت ستار كثيف

من النيران بالفشل.. غابات جرش الجميلة تدب فيها الحرائــق.. لكنهم لا يستطيعون أن يحرقونا معها.. حتى لو متنا فإننا سنموت مثل الأشجار التي طالما أظلتنا.

الشهداء.. لم نعد نحصي أعدادهم.. الجـــراح المثخنـة تنزف من كل جسد، نبحث عن نقط مطهر يــود، مكركـــروم أو سبرتو.. القصف يتوالى، ونحن نقبـــض علــى الكلاشنكوفــات بإصرار، ننتقل من مكان إلى آخر بين صوت المدافـــع وأزيـــز الرصاص والنيران التي لا تجد ما تأكله، والأنين الذي يتصاعد من أنفاس واهنة هنا وهناك.

هل يجوز لي أن أتذكر بإلحاح صورة أمي.. وصـــــورة فاطمة خطيبتي إنهما تحجبان عني رؤية المعركة، بين أحضـــان الموت أتذكر فاطمة، أراها في ثياب الزفاف علـــى أرض يافـــا وأمي تزغرد لنا.

وتقدم لي زوجي الحمام اللذين وعدتني بهما أمي..

الرصاص من كل جانب يمزق مجرد الذكرى.. فـــأرتد إلى واقعي عربيا يحمل كلاشنكوفا يقاتل دفاعا عن وجوده ضـــد العدو القبيح، يقول حكيم إن شر الأعداء وأقبحهم ما كان كامنـــا في الذات وها نحن في أحراش جرش نصارعه.

آه يا أمي إني أحبك.. وضغطت على الزنـــاد فـــانطلقت

الرصاصات متتالية بثوان في رشاشي الأوتوماتيكي.. وأسرع من انطلاق الرصاص ارتدت إلى ذهني صورة فاطمة تحجب عني صوت الرصاص ورائحة الموت.

ولكن هل تستطيع.؟

ولكن هل أستطيع أن أرى وجهها ووجه أمي.. هو حلم ظمآن في صحراء.

* * *

أقبلت فاطمة نحو عمتها ناحبة.

- الأخبار سيئة يا عمتي.

ثم تابعت حديثها: الفدائيون محاصرون والمدفعية لا ترحم.. إني خائفة فعلي هناك..

وقفت الأم حائرة، هل تواسيها هل تجملها بالصبر، ولكنها هي نفسها لا تطيق الصبر.

* لا تخافي يا بنيتي ربنا معهم.

* يا عمتي المدفعية لا ترحم.

- لن يستمروا هم عرب أيضا.

أخذت أنباء القتال تتوالى وعواصم الوطن الكبير تنقل الأنباء، وماذا يجدي صراخ من خلال ميكرفون في غرفة مقفلة.؟

الدماء تنزف، الفدائيون بالمئات يستشهدون. طـــائرات، دبابات، وعربات تحاصر مدافع تنطلق، أيــها الفدائيــون أيــن المفر؟!.. الموت من أمامكم والعدو وراءكم والغدر من فوقكــم والموت من كل جانب فليس لكم والله إلا النصر أو الشهادة.. من أجل كل التراب العربي اشربوا عصير لحاء الشجر، ولكن يجب أن تقاوموا.

- هي مؤامرة يا عمتي أكبر من طاقتهم.

* تجملي بالصبر يا بنيتي.

انخرطت فاطمة في البكاء وكـــان نشيجــها مســتمرا، وعمتها التي كانت أيام فلسطين توصل الطعام للمجاهدين تعرف قيمة الصبر.. ألم يستشهد زوجها أبو علي لم يزل علي جنينـــا.. هكذا الحياة آلام، وهكذا تعلمت من الحياة منذ أن خبرتـــها أنـــها معركة مستمرة.

قالت فاطمة: إنهم يريدون أن يبيدونا.

ثم تمتمت .. آه.. يا علي كم احبك.

كانت فاطمة تبكي.. وظلت فاطمة تبكي.. وكـــان علـــي يفكر بها ويفكر بـــأمه.. هو يمسك كلاشنكوفه لكن قلبه معهما.. كم مرة قال لها أن الحياة بلا ارض لا تساوي شيئا.. ها هو يرى الموت بعينه، وهو يدرك أن للحياة ألف معنى وألف قيمة لأننـــا

نحيا من أجل هدف ومن أجله نموت.

أما فاطمة فإنها أمسكت عن البكاء فجأة وكـأن خـاطرا نزل إليها من السماء.. فقامت من جلستها فجـأة وهـي تمسـح دموعها بطرف أناملها..

- عمتي وداعا..

والعمة قالت لفاطمة: بنيتي يدور في ذهني شيء أرجـو أن تشجعيني. سأذهب إلى أحراش جرش..

تبحلق فاطمة في عمتها وكأنها تراها لأول مرة.. مـاذا تقولين تريدين أن تذهبي إلى أحراش جرش.. يـا إلـهي.. يـا إلهي.. أي وحي! أي الهام.! أي قلب هـذا! إنـي أفكـر نفـس التفكير.

وبينما أم علي وفاطمة تفكران في الذهاب إلى أحـراش جرش.. كان علي في لحظة أوبته من تدمير الجسر الـذي يقـع على الطريق القديم ليمنع أرتال الدبابات من الزحـف وإكمـال الطوق.. كان علي يفكر فيهما.. هل من العدل أن تلحان عليه كل هذا الإلحاح..؟؟ لماذا تظلمانه؟. لماذا وهو يحمل روحه على كفه تعانقانه.؟! ها هو مع مجموعته يقفزون بين الهضاب والتـلال، بين الصخور والمرتفعات كالنمور يتحركـون، يضربـون هنـا وهناك، والقدر يتخطاهم.

لحظة بين ولحظة أخرى يصطاد رفيق لهم رغم ذلك يتخطون الموت لأنهم بالموت يحيون.

* * *

كنت يا أمي أريد أن أوصيك بفاطمة التي أحبتني وكنت يا فاطمة أريد أن أوصيك بأمي التي أنجبتني، ولكن ما يفصلني عنكما هو سنوات من الرصاص والدخان والموت.

جراحي تنزف، ممرضنا الكركي الوحيد الذي بقي أصيب بجروح خطيرة هو أيضا.. طبيبنا العربي القادم من مصر استشهد.. حاول الممرض رغم جراحه أن يسعفني، النزيف شديد ربطنا أعلى الفخذ... لكن هل ستحصل مضاعفات.؟ جرح مهمل بلا نقطة من مطهر.؟! إني انتظر رعاية الله، ودعواتك يا أماه وحبكما لي، لكن حتى لو شفيت، ما فائدة إنسان بلا ساق.؟ لن يكون للساق الأخرى قدرة على تحمل كتفين ويدين تحملان سلاحا، ما فائدة رجل بلا ساق لحبيبة صبية.؟

كل أمنيتي أصبحت أن أراكما لو للحظة.. هل تأتي هذه اللحظة؟

ورغم نقاط التفتيش المتعددة التي أصبحت مظهرا عاديا من مظاهر البلد كلها استقلت المرأة والفتاة سيارة أجرة.. الدنانير التي كانت تدخرها أم علي دفعتها للسائق قال لها:

– هي مغامرة وقد نرجع من منتصف الطريق.

وأصرت على الذهاب.. لم يستطع السائق أن يتابع المسير وعلى بعد كيلو مترات توقف كانت أصوات المدفعية وأصوات الرصاص تأتي إليهما من بعيد.

فوقف السائق .. إني أتمنى لكما السلامة.. ثم أشار إليهما غربا نحو الجبال يمكنكما من ذلك الطريق أن تجتازا تلك الجبال بعد ساعات..

وسارتا.. الجبال مع الشوق واللهفة تصبح سهولا، وبعد جهد ساعات طويلة استطاعتا أن تلحظا شبحا في ثياب مموهة..

وندهت عليه أم علي: بني. بني.. وقف الفدائي دهشا من يأتي هنا والنار تلتهم الأرض..

فأشار إليها بالتقدم.. وطلب منها الحذر وهي تتحرك.. ووصلته عانقته وكأنها تعانق عليا، هنأته بالسلامة.. يا بني أتعرف عليا.. علي رفيقكم.. بطل العمليات ضد اليهود.. هو أبو السبع كما تنادون عليه.

وانسل الفدائي ومعه امرأة وفتاة وسار بهما في شعاب الجبل.. وداخل كهف في سفح مغطى بأشجار.. أشار إليهما أن يدخلا.

كانت عتمة الكهف تحجب الرؤيا ولكنها لا تحجب

السمع.. آهة عليلة قفزت من صدر جريـــح كـــان الممـــرض متمددا بجوار علي.. وعلي يعاني من سكرات الموت.. دخلـــت الأم والخطيبة الكهف، وكان الممرض يغالب أوجاعه..

سأل: من أنتما.؟

أجابته: أمك أم علي وخطيبته..

فتح علي عيناه.. وأخرج من حلقه أحرفا واهنة.. من جوفه استلها كأنها نصل حاد..

– من جاء.؟!

أجابه الممرض بإجهاد: أمك.. أمك يا علي وخطيبتك..

تمتم أمي.. فاطمة..

وكانتا قد اقتربتا منه على بعد متر أو أقل.. نظر إليهما وابتسم بسمة انهالت أمه عليه بالتقبيل.. وأخذت فاطمة.. تنادي.. تصرخ.. تبكي.. تولول.. ها أنا يا علي حبيبتك يا علي جئت لأراك.. ولكن عليا كان في واد آخر.

تموز – يوليو 1971

لوحة الغلاف بريشة الفنان عمار الفول